

تاريخ الحضارة^(١)

في القرون الوسطى والقرون الحديثة

اصول الحضارة

الآثار قبل التاريخ — تجد في الارض احياناً دفائن من سلاح وادوات وعظام بشرية وبقايا من كل نوع تركها البشر ولا علم عنها شيء ويستخرج منها الوف من الانواع في جميع ولايات فرنسا وسويسرا وانكلترا بل في اوربا كلها بل يستخرج مثلها من آسيا وافريقية ولاشك ان لها امثالا في العالم كله . وتسمى هذه البقايا آثار قبل التاريخ لانها اقدم من التاريخ ومنذ نحو اربعين سنة اخذ العلماء يجمعون ويدرسونها . ولعظم المتاحف اليوم قاعة او على الاقل بعض بيوت من الزجاج مملوءة من هذه البقايا . وعلى مقربة من باريز في (سان جرمان ان لاي) متحف من قبل تهد التاريخ . وقد جمعت الدانيرك زهاء ثلاثين الف قطعة من الآثار . وفي كل يوم يعثر على تحف اثناء الحفر وعند بناء بيت وحفر - حفرة لسكة - جديدة .

وهذه التحف لا ترى على سطح الارض بل هي مدفونة في الاعماق وفي اما كن لم تنبش تربتها وهي مغشاة بطبقة من الحصى والعطين الندي تراكت شيئاً فشيئاً فوقها وجعلتها بأمن من الهواء وهو ما يؤكده كل التأكيده بان تلك الدفائن هناك منذ زمن بعيد . علم ما قبل التاريخ — فحس العلماء هذه الآثار ففسألوا عن خلفها لنا وحاولوا ان يعرفوا من عظامها وادواتها كيف بقيت وكيف كانت تعيش فاقبضوا ان هذه الادوات تشبه ما يستعمله بعض المتوحشين الى اليوم . ومن درس هذه التحف نشأ علم جديد^(٢) سموه علم الآثار قبل زمن التاريخ

العصور الاربعة — حدثت بقايا الآثار قبل زمن التاريخ من اجناس من البشر متنوعة كثيراً بقيت في الارض ادواراً متطاولة جداً منذ زمن كان يعيش فيه في بلادنا الماموت وهو نوع من الفيل العظيم له جلد كثير الوبر وانياب محددة . ونقسم هذه السلسلة من القرون الى اربعة ازمان تسمى عصوراً

(١) معرب من كتاب شارل سنيوبوس من مؤرخي فرنسا (٢) وضع هذا العلم علماء

من الفرنسيين والسويسريين والدانيمركيين .

فالاول عصر الحجر النقيت والثاني عصر الحجر العقبيل والثالث عصر النحاس والرابع عصر الحديد . سميت هكذا بسبب الادوات التي كانوا يعملونها من الحجر والنحاس او الحديد . على ان هذه الازمان تختلف طولاً وقصراً وربما دام عصر الحجر النقيت مئة ضعف عصر الحديد

عصر الحجر

بقايا الحصباء — اقدم الاطلال التي عثر عليها كانت مدفونة في الحصباء . وقد عثر احد علماء فرنسا المسيو بوشه دي بورت (منذ سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٥٣) في وادي لاسوم بادوات فاطعة من الصوان وكانت مطخورة على عمق ستة امتار فالحصباء على ثلاث طبقات من ارض خرف وحصباء وكلس صلصالية لم تحركها يد . كما عثروا في نفس تلك الاماكن على عظام بقر وأيائل وقيلة . وظل الناس يهزؤون زماناً بهذه الاكتشافات فكانوا يقولون ان هذا الصوان قد نحت صدفة بلا عمل حتى اذا كانت سنة ١٨٦٠ جاء عدة من العلماء بالقصد الى وادي لاسوم واعترفوا بان هذا الصوان قد نحتته يد البشر بلا مرأه . ومنذ ذلك العهد عثروا على زهاء خمسة آلاف قطعة تشبه تلك في طبقات من هذا الجنس نفسه وذلك في وادي السين وفي انكيترا وكان بجانب بعض تلك الآثار بقايا عظام بشرية . ولا يختلف اثنان اليوم في ان كان بشر في العالم في الزمن الذي تألفت فيه على تربتنا طبقات الحصباء . فاذا كانت الطبقات التي تغشى هذه الاطلال قد تألفت بالبطء الذي تألف به لعهدنا هذا فان البشر الذي وجدت عظامهم وادواتهم قد عاشوا قبل زهاء مئتي الف سنة .

رجال الغيران — ولعلما عثر الباحثون على اطلال في الغيران محفورة في الصخر تكون احياناً قائمة فوق نهر واشهرها مغارات شواطئ نهر الفيزير (احد انهار فرنسا) ويكثر امثالها في كثير من الاماكن اتخذت قديماً مساكن للناس وحياناً قبوراً لهم . فقبض فيها هياكل عظامهم واسلحتهم وادواتهم وهي عبارة عن فؤوس وسكاكين وازاميل اسنة رماح من الصوان وسهام وشفاير كلاليب واير من العظام مثل ما كان يستعملها بعض المتوحشين وقد نثرت على التربة عظام الحيوانات فكان اولئك الناس القذرون كسائر المتوحشين يلقون بها في زوايا بعد ان يأكلوا الحيوان وقد يشقون عظامه ليستخرجوا منها النخاع على ما يفعل اليوم المتوحشون . ولست ترى بين تلك الوحوش الارنب والابل والبقر والحصان وحيوت سليمان بل تجد بينها ايضاً الكركدن ودب

الكهوف والماموت والوعل وبقر السهل وجميع ضروب الوحوش المنقرض نسبها من فرنسا منذ زمن طويل . ولقد عثر أيضاً على بعض الصور المنقوشة على عظام الوعل أو على استنان الماموت تمثل احداها قتال وعل والثانية حيوان الماموت اي فيلاً هائلاً ذا جلد له وبر كالصوف وانياب معقفة

لاجرم ان هؤلاء الناس كانوا معاصرين لذلك الفيل والوعل فكانوا الجنس الاسكيمو (سكان القطب في اميركا) في عهدنا هذا قوم دأبهم الصيد والفنص يحسنون صنع الصوان وايقاد النيران

المساكن — انخفضت المياه في بحيرة زوريخ (سويسرا) سنة ١٨٥٤ اعقب ما حدث من الجفاف في صيف تلك السنة فأكتشف سكان الشواطئ اوتاداً غرزت للبناء وهي بالية جداً وماعوناً غليظاً غير محكم وكانت هذه بقايا قرية قديمة بنيت على الماء . ثم عثر على زهاء مائتي قرية تشبهها في بحيرات سويسرا وبدونها القرى او المدن المبنية على اوتاد في شواطئ البحيرات . اما الاوتاد التي قامت عليها تلك المساكن فتندرجت من جذوع الاشجار غرزت من أطرافها في البحيرة على عمق عدة اذراع واقتضى لانشاء كل قرية من ثلاثين الى اربعين الف جذع تحمل سطحاً من الخشب قيمت عليه بيوت من خشب مغشى بالطين . ويستدل مما عثر عليه من مئذات من الامتعة في وسط تلك الاوتاد على العيشة التي كان السكان يعيشونها فقد كانوا يأكلون من الحيوانات التي يصيدونها الابل والوعل والغنم البري على حين كانوا يعرفون من قبل الحيوانات الاحلية كالبقرة والغنم والحمل والكلب ويحسون زرع الارض وحصاد الغلة واجن الحب لانه وجد في اطلال قراهم حب الخنطة بل خبز (وبعبارة أخرى معجنات بدون خمير) وكانوا ينسجون الاقشة الغليظة من القنب ويخطون الثياب وقد عثر على ابر من عظام وكانوا يعملون الفخار على صورة ليس فيها شيء من المهارة وترى انبتهم لاثراً لدرجة فيها بل هي معمولة باليد ومزدانة ببعض خطوط فقط وكانوا يعملون السكاكين والسهام من حجر الصوان مثل سكان الغيران ولكنهم يعملون قوسهم من حجر صلب للغاية تعلموا صقله . ولذلك دعي عصرهم بعصر الحجر الصقيل وهو لاء السكان احدث عهداً من سكان الغيران لانهم لم يعرفوا فيل الماموت ولا الكركدن وان كانوا عرفوا الوعل والابل في ارض فرنسا .

المصانع او الابنية — تحس الابنية المهنوعة من ضخم الشقيف من الاحجار غير

المصنوعة الابنية الميكانيكية اي الحجارة الضخمة ويكون الحجر فيها نارة على حاله واخرى مغطى بالطين . والمصانع التي يبقى فيها الصخر مكشوفة هي على انواع قنبا « الدولان » وهو منفذة من الحجر مؤلفة من حجر مستطيل مركز على عدة احجار مغروزة في الارض و « الكروملش » وهي دائرة من الحجر يتألف من صخور كبيرة مصفوفة على صورة اطار ومنها « المانهير ^(١) » وهي حجر طويل مؤلف من شقيقة جعلت على طرفها وكثيراً ما تكون عدة من المانهير مصفوفة صفاً واحداً . ولا تزال في الكرنك من اقليم برتانيا اربعة آلاف من هذا البناء قائمة على احد عشر صفاً . ويذهبون الى انه كان قديماً عشرة آلاف واحد من نوعها جعلت على صف واحد في ذلك المكان . وانك لتشاهد الابنية الميكانيكية في فرنسا بالمثلث بين ولايات الغرب ولا سيما في إقليم برتانيا وتجد في انكلترا منها على معظم الآكام ومنها زهاء التي بنيت فقط في جزائر اوركاد .

وتسمى المصانع المدفونة التومولوس وهي شبه اكمة عن بعد واذا فتحت يجحد المرء في داخلها غرفة من الحجر وكثيراً ما تكون مبطنة بالواح من الصخر . وترى منها في بلاد الدانيرك والمانيا الشمالية مصانع منشورة ويسمي اهالي تلك البلاد تلك المصانع المدفونة قبور الجبارين .

والمصانع الميكانيكية كثيرة خارج اوربا وفي الهند وعلى شاطئ افريقية . ولا نعلم اي الشعوب استطاعت استخراج مثل هذا الثقيف ونقله ولقد جاء زمن طويل كانوا يظنون فيه ان قدماء الغاليين والساتيين هم الذين عنوا باستخراجها ونقلها ومن هنا جاء اسم المصانع الساتية ولكن ذلك مردود لما اذ ثبت وجود مثل هذه المصانع في افريقية والهند

واذا فتحت بعض هذه المصانع المدفونة غير المحسوسة تجد فيها كل حين هيكل عظام وكثيراً ما يكون عدة هياكل وهي اما جالسة او مضطجعة فهذه المصانع عبارة عن قبور فتجد بالقرب من الميت اسلحة وآية ونقوش . وفي اقدم هذه القبور ترى الاملحة عبارة عن فؤوس من الحجر الثقيل والنقوش هي اصداق ولا تلى وعقد من عظم او من عاج والانية بسيطة للغاية بدون عروة ولا عنق بل هي مزدانة فقط بنقوش او فقط

(١) سميت جميع هذه المصانع باسماء ساتية لان العلماء دروها اولاً في بلاد

السلت .

وترى فيها عظام حيوانات ملقاة على ارض مكلسة وهي بقايا طعام قدم في جنازة الميت قدمه احبابه الى قبره . وليس بين هذه العظام اثر لعظم الوعل وهذا ما يستدل منه على ان هذه المصانع بنيت عندما اندثر جنس الوعل من اقطارنا اسـ بعد زمن القري المبنية في البحيرات.

قرن المعادن

القلز (النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد) استعمل البشر المعادن منذ عرفوا اذابتها ليصنعوا منها أسلحتهم مفضلين لها على الحجر . فاول معدن شاع بالاستعمال هو النحاس لسهولة استخراجـه لان منه الصافي السهل على التطريق اذ يمكن تطريقه بارداً ولكن لم يستعمل النحاس الخالص ومنه تصنع اسلحة سريعة المطب قابلة للتقليد . ولذلك مزجوه بـ $\frac{1}{10}$ من القصدير ليزيد صلابـة وهذا المزيج من النحاس والشبه هو الذي يستعملونه القلز .

ادوات البرونز — صنعوا من القلز ادوات للعمل (كالمدى والمطارق والمناشير والابر والضئائير) وادوات للزينة (أساور وسفائيد واقرط) وصنعوا منها اسلحة بوجه مخصوص (مثل الخناجر وزج الرماح والفؤوس والسيوف) ويوجد من هذه المصنوعات في قارة اوربا عامة في المصانع المدفونة وفي نضائد الرخام Dolmen الحديثة وفي معادن الحجر المشتمل tourbierre ببلاد الدانيمرك وفي مدافن الحجر وكثيراً ما يكتشف بالقرب من هذه المصنوعات من البرونز ادوات من الزينة من ذهب واحياناً بقايا ثوب من الصوف . ولا يتأني ان تكون جميع أدوات البرونز متشابهة بالعرض ومعمولة من مزيج معين . لاجرم ان تاريخها يرد الى عهد واحد وهو مقدم على وصول الرومان الى غالباً اذ لم يظفر بها قط في جانب الآثار الرومانية والى اليوم لم يعرف من كان يستعملها .

قرن الحديد — لما كان الحديد اصعب على التطريق واقسى على العمل من البرونز لم يعرف استعماله الا مؤخراً . واذ كان اكثر صلابـة لم يستعمل غيره للسلاح منذ عرف . وكان الحديد على عهد هوميروس لبلاد اليونان معدناً ثميناً يدخونه لصنع السيوف و يبقون القلز لسائر الاستعمالات ولذلك ترى كثيراً من القبور تحوي اشياء من القلز واسلحة من الحديد كيفما التقى

وهذه الاسلحة هي فؤوس وسيوف واقواس ودروع ويوجد منها في العادة بالقرب

من هيكل عظام وفي قبر حجر او خشب لان المحاربين كانوا يدفنون مع اسلحتهم
ويعثر منها في ساحة الحروب منفردة او ضائعة في قعر حوض من الحجر وقد اكتشف
في احد هذه الاحواض في شلزيك ١٠٠ سيف و ٥٠٠ رمح و ٣٠٠ فأس و ٤٦٠ سهماً
و ٨٠ مدية و ٤٠ منقشاً وكلها من الحديد وتلي مقربة من ذلك المكان في مجرى بحيرة
قديمة رأوا مركباً عظيماً طوله ٢٠ متراً محملاً كله من الحجاز والسيوف والنصال والمدى
فلاشياء المعمولة من الحديد التي يعثر بها على هذه الصورة كثيرة لا تحصى وهي اقل
بهاء من مصنوعات البرونز لان الصدا يأكل الحديد بسرعة فتراها لأول وهلة أكثر
قدماً ولكنها في الحقيقة أكثر جدة

عرف سكان شمالي اوربا الحديد قبل دخول الرومان اي في القرن الاول ب م .
وقد اكتشف في مقبرة قديمة بالقرب من مناجم الملح في هالستاد من بلاد النرويج ٩٨٠
قبراً تحتوي على ادوات من الحديد والبرونز ولم يظفروا بها بقطعة من النقود
الرومانية وقد دام قرن الحديد الى عهد الرومانيين وان المصنوعات الحديدية ليعثر عليها
مع ادوات الزينة الذهبية والفضية والاواني الخزفية الرومانية ونواويس وكتابات
ونقود رومانية على مثال صور الامبراطرة والحاربون الذين نراهم ضابطعين بالقرب من
سيوفهم ودروعهم كانوا في الاكثر الى عهد قريب منسا وكان كثير منهم على عهد
المير وفنجيين وبعضهم ايضا على عهد شارلمان . فليس القرن الحديدي اذاً من القرون التي
تعد قبل زمن التاريخ .

الخلاصة

ماذا يراد من القرون الاربعة — استعمل سكان البلد الواحد الاحجار المنحوتة فالاحجار
المصقولة فالفلز فالحديد ولكن البلاة كلها لم تكن تستعمل في القرن الواحد المعدن
الواحد فالمصريون استخدموا الحديد في حين كان اليونان يستعملون الفلز وبرابرة
الدانيمرك ما زالوا على استعمال الحجر ولم يذمه عصر الحجر المصقول في اميركا الا عند
ما وصل اليها الاوربيون وظل المتوحشون من اهل استراليا الى ايامنا هذه في عصر
الحجر النخيت ولا يوجد في منازل عسكرهم سوى ادوات من العظام وقذاحات تشبه
ما كان يستعمله سكان الغيران فليس للعصور الاربعة اذاً ادوار في حياة الانسانية بل
في حياة كل مملكة على حدة فقط

شكوك — ما يرح علم الآثار قبل التاريخ من العلوم الحديثة النشأة وما تعرفه عن

البشر الاصليين تعلمناه من بقايا حفظت بالعرض ووجدت كذلك وعلى ذلك وقد توّدي صدمة جديدة وحفيرة او خندق وانهار ارض وجفاف مطر الى اكتشاف جديد . ومن يعرف ماهو مدفون في بطن الارض حتى الآن فان ماعثر عليه من المدفونات حتى اليوم من الاشياء لا يقع تحت الحصر ولكن باقيا نفيدنا فيما نريد ان نعرفه . فكيف من زمن دام كل عصر من العصور الاربعة ؟ ومتى بدأ وانتهى في البلدان المختلفة في العالم ؟ ومن اي الشعوب اتت صور الغيران والكهوف والقرى وسط البحيرات والمصانع المدفونة في التضاريس الحجرية ؟ وعندما انتقل مملكة من عصر الحجر المصقول الى الفلز هل يكون الشعب نفسه قد غير ادواته او خلفه شعب آخر ؟ وعند ما يعتقد بعضهم انهم ظفروا بجواب على ذلك يحدث اكتشاف جديد يكذب علماء الآثار فقد كان يظن ان التضاريس الحجرية جاءت من السلتين فوجدوا منها في محال لم يستطع السلتيون ان يجتازوها

مسائل محولة — ومع هذا فان ثلاث مسائل يظهر انها محولة (١) الانسان هو قديم على الارض لانهم عرفوا الماموت ودب الكهوف فكان يعيش على الاقل خلال العصر الذي يقال له العصر الرباعي (٢) انتقل الانسان من حالة الهمجية حتى وصل الى المدنية وحسن بالتدريج آلاته وادواته وبناته من الفأس الحقيقير المعمول من الصوان والعقد الموائت من اسنان الدببة الى سيوف الحديد وحلي الذهب وذلك لان الادوات الفليضة كثيرا هي ايضا عريقة في القدم (٣) تقدم الانسان تقدما مسريعا وكان كل عصر اقصر مما سبقه

غاليا

شعوب غاليا المستقلة — كانت البلاد التي يسكنها (الفرنسيون) تدعى قديما بلاد غاليا ويريدون بهذا الاسم جميع الصقع الممتد من جبال البيرنيه الى الالب والرين فالجور وهذه البلاد الواسعة لم تكن مملكة واحدة بل كانت تنقسم بين مئة من الشعوب الصغيرة على الاقل ولكل منها حكومتها وجيشها يحارب بعضها بعضا وهذه الشعوب موزعة من ثلاثة عناصر مختلفة

(١) كان الالبيون وهم من نفس عنصر سكان اسبانيا يتكلمون في الجنوب في البلاد الواقعة بين جبال البرنيه وتبر الغارون بلغة لا تشبه بوجه من الوجوه اللغات التي يتكلم بها في اوربا ومازال يتكلم بها الى الآن الباسك في البرنيه

(٢) كان السلتيون في الوسط أي من نهر الفارون الى نهر المارن من عنصر مسكان
 ايرلاندا نفسه ولغتهم تشبه اللغة التي يتكلم بها في ايرلاندا وفي بلاد المال وبريطانيا
 (٣) في الشمال من نهر المارن الى نهر الرين الشعب البلجيكي الذي كان بعضهم من
 السلتيين والآخر من الجرمانيين أي من نفس الشعوب التي تسكن المانيا
 فلم يكن في غالبا من ثم وحدة في الجنس ولا وحدة في اللغة

ديانة الغاليين — كانت ديانة الشعوب الغالية اشبه بديانة اليونان والرومان فيعبدون
 عدة ارباب تمثلها اصنام. ونحن لانعرف ايضا اسماء هذه الارباب ولكننا نعرف اهمها.
 وهي رب الشمس (بلن) وربة القمر (بلزانا) ورب الفصاحة يثلونه في سلاسل ذهب
 خارجة من فم لتقيدهم الحضور ورب مكلف بان يعود الى جهنم ارواح الموتى (توتانس) ورب
 الرعد ورب يدهي المفزع كان يسكن الغابات المطلحة. وكانوا يقدمون لهذه الارباب اكراما
 لها وكثيرا ما يذبحون لها ذبائح بشرية يختارونها اما من الجناة المحكوم عليهم بالاعدام او من
 أسرى الحرب وكان في غالبا ما يبقية من الناس وقفت نفسها على خدمة الدين وهم الدوروديون
 يجتمعون خاصة من شبان الأسر الشريفة وهم في العادة يتنولون التبتل فلا يتزوجون وكان
 للدوروديين مذاهب دينية تخالف دين الشعب ولم ينته اليها ما يرفقا بهذين المذهبين
 ولانعلم انهم كانوا يعتقدون بخلود الروح. وكانوا يلبسون فوطا ابيض ونمالا وبقصون
 بايديهم قضباناً بيضاء يستعملونها في الاعمال السحرية لانهم كانوا كهنة واطباء وصحرة
 وقضاة في آن واحد. وكانوا يرون ان لبعض النباتات فضيلة ذاتية ولا سيما دبق (عتم)
 البلوط وهو النبات الذي يشفي بزمهم من عامة الامراض فكانوا يحنون به باحتفال
 حافل بمناجل من ذهب في اليوم السادس من آخر شهر في الشتاء

اخلاق الغاليين وعاداتهم — كانت الشعوب الغالية الى القرن الاول من التاريخ
 المسيحي براية متوحشين يعيشون الا قليلا كما يعيش اليونان قبل هوميروس او الرومان
 في اوائل امرهم وكانت البلاد مغطاة بغابات واسعة يسكنها للدباب والابائل والنعام
 والديبة وفيها بطائح موكفة من اثمار ولم يكن فيها من طرق سوى الضيق المعوج ولم
 تكن البيوت سوى اكواخ صفية من خشب او من لبن مغطاة بقش لانوافذها ولا مدخن
 ولها سقف السقف خرق يصعد منه الدخان حتى انه لم يكن عند الاغنياء الغاليين اثاث
 ولا فرش بل كانوا ينساقون على القش او على جلود وياكلون بايديهم ولم يكن لهم
 مدن بصح اطلاق لفظ مدينة عليها بل لهم اسوار من الحجر يسكن داخلها القوم

ويتحصنون أيام الحروب وهناك كانت تقام الاسواق وتُعقد مجتمعات المحاربين والاشراف .

ولم يكن سكان البلاد متساوين فيما بينهم فكان الفلاحون طبقة دنيئة والمحاربون الذين يقاتلون على خيولهم هم طبقة الاشراف وهوؤلاء وحدهم هم الحكماء وكان لبعض الشعوب زعيم سام اي ملك (ولفظ ريكس) الغالية التي توجد في آخر عدة من اسماء رؤسائهم مثل امبيور ريكس بوايور ريكس فرسينوجيثور ريكس وغير ذلك هي نفس اللفظ اللاتيني ريكس

وكان المحاربون يتسلحون برمح له سنان من القلز وبسيف ثقيل من الحديد ويلبسون خوذة وترسًا من الخشب ولم يكونوا يلبسون الدروع . وبفوق الغاليوت اليونان والرومان من جهة واحدة فقط وهو ان ثيابهم كانت أكثر ملائمة واحسن صنعًا للتوقي من البرد . فبدلاً من ان يلبسوا مثلهم ثياباً طويلة ترك صاحبها وترك ساقية عريائتين ونعلين تكشفان رجلاه كانوا يلبسون نوعاً من السراويل (البري) ومسلحاً وضرباً من ضروب الاردية (السي) اشبه بما يلبسه الجيليون من اهل ايكوسيا واحذية تسمى كاليكا اي الغالية ومنها جاءت لفظة « كالوش » الفرنسية واقابس الرومانيون تلك السراويل الغالية

غاليا الرومانية

كيف اصبحت غاليا رومانية — استوطن الرومان بادي بدء الشطر الجنوبي من غاليا في جوار ايطاليا حيث طاب لهم الهواء واطلق على البلاد من جبال البيرنيه الى جبال الالب اسم بروفانس اي ولاية (وبقي اسم بروفانس يطلق على القسم الشرقي من شرقي نهر الرون) فلم يمض زمن طويل حتى اشتهت بلاد ايطاليا ولما افتح قيصر بنية بلاد غاليا خف سكانها الى الخفي عن عاداتهم واقتباس عادات الرومان فغادروا القرى ونزلوا المدن حيث انشأوا معابد ودور تمثيل وحمامات وبيوت من رخام ومروشة بالقيسية على نحو ما اعتاد اغنياء الرومان

وحذا السكان حذو الاشراف فتركوا بالتدريج حتى لغتهم وأخذوا يتكلمون باللاتينية ومن اللاتينية التي تكلم بها العامة في المملكة الرومانية نشأت اللغات الرومانية كالفرنسية والابطالية والاسبانية ويكاد لم يبق في الافرنسية سوى كلمات طغيفة من اللغة الغالية (مثل «بك» منقار «كوك» ديك «الريت» قنبرة «مارن» تراب كلبي

مزوج بصلصال « دون » كثيب « ليو » فرسخ
نظام غالبا — لم تدثر الشعوب الصغرى القديمة التي كانت لتقام غالبا بل تألفت من
كل واحد منها مدينة سميت باسم سكانها (مثل سواسون تريف ليموج باريز) وكلما
أُشئت مدن جديدة تضاف الى ما أُنشئ من نوعها قبلاً . وانضمت عدة مدن
فأُلفت منها ولاية وكان لكل ولاية حاكم ينوب عن الامبراطور وله سلطة مطلقة نافذة
فهو يقضي بين الناس وبيت المسائل وبلغ المدن اوامر الامبراطور وكان الوالي في
الولايات الواقعة على الحدود حيث يرايط فيان من الجيش دائم هو القائد
وما قط كان لسكان غالبا غاية في تأليف امة خارجة عن بقية المملكة حتى أمسوا على
التوالي يعتبرون أنفسهم رومانين فيطيعون الامبراطور وحكامه عن رضى ولذلك
لم يكن الامبراطور في حاجة ان يضم شملهم تحت رايته بالقوة كما يجمع شمل الشعب
المناوب على امره . وكان له جيش ولكن على التخوم فقط للدفاع عن الغاليين من غزوات
برابرة الجرمانين لا لأكراهم على الخضوع . ولم يكن في تلك البلاد الواسعة التي هي
أكبر من فرنسا الحديثة من الجنود الاحرس الولاية يبلغ عددهم على الجملة ثلاثة
آلاف رجل .

اصول المجالس البلدية في غالبا — ظل صغار الشعوب في غالبا يديرون أمور انفسهم
بانفسهم وكانت للامبراطور التدخل في مسائلهم الداخلية ولكنه لا يسي في العادة
استعمال حقوقه بل يطلب اليهم فقط ان لا يتحارب بعضهم بعضاً وان يؤدوا المطلوب
منهم للحكومة في اوقاته وان يحضروا امام محكمة الوالي وكان في كل ولاية عدة حكومات
صغرى مأمورة وتدعى كما كانت قديماً في المملكة الرومانية مدناً او بلديات . فالمدينة
على عهد الامبراطورية الرومانية كانت على مثال المدينة الرومانية نفسها فيها مجلس
لعامتها وعمال ينتخبون كل سنة و يقسمون اقساماً كل قسم مؤلف من عضوين
ومجلس الشيوخ يتألف من كبار ارباب الاملاك اي من الاشراف والامرات القديمة
وكان حال مجلس العامة او الامة كما هو الحال في رومية صورياً ومجلس الشيوخ ايسر
الاشراف هم الحكام حقيقة اما وسط المدينة فهو مدينة صرفة على الدوام اي رومية
مصغرة ولعامابدها واقواس نصرها وحماتها العامة وعيونها وسارحها وميادين لقتالها
والحياة فيها صورة من حياة رومية مصغرة من حيث توزيع الخنطة والدرهم والمآدب
العامة والحفلات الدينية الكبرى والالعاب الدموية . ألا ان دراهم الولايات في رومية

هي التي تؤدى النفقات اما في المدن فان الاشراف انفسهم يقومون بالنفقات اللازمة للحكومة والاعباد .

وكان الخراج الذي يجبي لحساب الامبراطور يذهب اليه برمته ولذلك اقتضى ان يقوم الانبياء على نفقتهم بالاحتفال بالالاعاب واحماء الحمامات وتبليط الشوارع وانشاء الجسور والمجاري والملاعب . قاموا بكل ذلك مدة قرنين وبدلوا عن سعة في اقامة المصانع المنبثة في ارض المملكة والوف من المكتشات المزبورة على الاحجار شاهدة بذلك ابد الدهر

كان بين جبال البيرنيه ونهر الرين نحو مئة وعشر مدائن ولم تكن كوراً سانجة على نحو ما يوصفه نظام المجالس البلدية فيها بل انه كان لمعظمها ارض مساوية لولاية او برشية وهكذا كانت تجدد بين نهري اللوار والسوم مدن سانس وسواسون واورليان وكانت باريز ونويون وسانليس وبوفي ولاون وسواسون وآمين فقط حواضر مدن وكانت المدن في اقليم البروفانس حيث نزل الرومان منذ عهد متطاول اكثر ازدحاماً وكانت ترى في اقليمى فوكازيس ودروم فقط مدن اثنيون وكاربتراس واورانج وكافاليون وفيزون وسانبونس ودي وفالانس . وفي ذاك الصقع حفظت اجمل المصانع في مدينة ليم ترى الملاعب والمعبد المسمى البيت المربع والقناة المسماة بـجر الحرس وفي مدينة ارنس الملاعب وفي مدينة اورانج المسرح وقوس النصر ولكن جميع المدن كان لها مصانع من هذا النوع . وقد عثروا في باريز اصغر مدن الالبيين على حمامات حارة وحمامات معدنية بالقرب من نزل كلوني وعلى ملاعب في شارع مونج . وما من متحف الا ترى فيه محفوظاً الى اليوم بعض بقايا المعابد والمجاري والفيساء او قبوراً رومانية

اسباب الفارة

الجرمان — كان يسكن وراء نهري الرين والدانوب (الطونة) في البلاد التي تتألف منها اليوم المانيا شعوب غير ممدنة كان الرومان يدعونهم الجرمانيين وكانوا كالكلدود والفرس واليونان والرومان شعوباً من عنصر آري تزحت في القديم من قارة آسيا وهم شعوب من الرعاة اصبحوا حراثين وشعوباً محاربين وكانوا ينقسمون الى عدة قبائل (نحو اربمين) تحكم كل واحدة نفسها منفصلة عن الاخرى وكثيراً ما كانوا يناوشون بعضهم بعضاً الحرب

وكان معظم المقاتلين من الجرمانيين لا يعتبرون الا الحرب ويقول تاسيت انهم كانوا كلما انقطعت شأفة الحروب من بينهم يقتضون اوقانهم في الصيد ويتغلون عن كل عمل الا النوم والأكل . وكان اشجعهم وأكثرهم شدة في القتال لا يتعاطون عملاً يتركون العناية ببيوتهم وحقولهم للنساء والشيوخ والضعفاء وهم يعيشون كالخدريين . وكان في كل شعب كثير من الناس جعلوا الحرب والغارة صناعتهم فيجتمعون حول محارب شريف او مشهور ويحلفون بان يخلصوا له الخدمة . وعلى هذه الصورة تئلفت عصابة من الاصحاب مخلصة لزعيم يعيشون في داره وبأكلون على مائدته يحفون به ايام الحرب ويقادون بأرواحهم في سبيل الدفاع عنه . وكانت تشتد حاجة هاته العصابة الى الحرب فالرفاق يلتصقوا على هذه الحياة المقصورة على الأكل والبطالة والزئيس يقوم بأود رجاله . وعندما يسود السلام في الشعب تنصرف عصابات المحاربين لقتال مع زعمائها في جيش احد الشعوب او يحاربون على حسابهم وكانت الامبراطورية الرومانية تستعملهم للقيام بهذه الاعمال فبعضهم ينهلون على ولايات الحدود ينبهونها وآخرون يدخلون في خدمة الرومانيين يقاتلون المهاجمين من البرابرة وكثيراً ما يعودون مستعدين بروائعهم او غنائمهم ولكن لذت لكثير منهم عيشة التشرّد فلا يكادون يرجعون الى مساكنهم . وقد ادى هذا النظام الى فناء جميع القبائل النازلة في القوم فلم تبق ثلاثة قرون الا وقد زالت العصابات الراسلة ولم يبق حشالة من حشالات الشعوب حتى اذا جاء القرن الثالث ظهرت معاهدات تحت اسماء جديدة ليست اسماء شعوب وهي ثلاثة الامان في القراع الذي يتألف من نهر الرين والدانوب الاعلى والفرنك على المجرى الاسفل من نهر الرين والسكسون على طول بحر الشمال وكان لكل جماعة من تلك الجماعات الصغرى التي تكون منها تلك المعاهدات زعيم يسمى ملكاً ويحارب في العادة على نفقته .

ابدهار السكان في الامبراطورية الرومانية — جرى اذ ذاك في الامبراطورية الرومانية مثل ماجرى في جميع المجتمعات القديمة كاسباطة ويونان وايطاليا اي انه قل عدد السكان واتسعحل الاحرار وخلفهم العبيد ولم يكن لهذا الشعب من العبيد حفظ من القوم بل كان اذا حدث كائن من الكوائن التي يكثر حدوثها في ذاك العهد من وباء وحرب وغارة بغنى زراع ذلك الصقع فتظل الارض غير مأهولة ولم تلبث القرى على التدريج ولا هجما من جهات القوم ان فرغت من الرجال ولم يبق سكان الا

في المدن واصبحت عدة اصقاع أشبه بالقفار منها بالارياض
وبعد ان اجتازت بالبلاد جيوش الخربين العظمى سنة القرن الخامس (امثال
راداكيز واتيلا) حدث في البلاد فراغ استحال على الامبراطورة ان يملأوه ففي بلاد الغال
واسبانيا وايطاليا بل في بلاد الغرب اجتمع بار شطر كبير من الاراضي لقلة اليد العاملة
واصبحت الولايات الواقعة على التلخوم مقفرة ولم يبق في كل البلاد التي يسقيها نهر
الدانوب من سويسرا الى البلقان ولا مدينة رومانية واحدة وانتمحل السكان حتى انه
منذ القرن الرابع لم يبق في جميع هذه البلاد الا شعوب جرمانية اوسلافية وهكذا الحال في
البلجيكا لم يجد القرنك فيها غير القفر

انحطاط الجيش الروماني — دعت هذه البلاد المنفرة الناس الى سكناها فكان
البرابرة يحاولون على الدوام ان يدخلوها وكان من السهل على الحكومة الرومانية ان
تدفعهم عن البلاد كلما كان لها جيش في الجبلية ولكن آلت الحال في قلة الجند كما صارت
في قلة المال بحيث كان من الصعب ابداً تجنيد العدد اللازم فاعقاد السكان عيش
الدعة ولم يعودوا يهتمون ان يفادوا بانفسهم في الجيش فاضطرت الحكومة ان تطلب
جنداً من كبار ارباب الاملاك وهو لا يسوقون بعض المزارعين (المستعمرين) في
اراضيهم فيأخذونهم بالقوة من وراء سكتهم ومحراثهم فلا يكون منهم الا جند مي
النظام فقد أصبح الجندون في القرن الرابع من الضعف بحيث لا يستطيعون لبس الدرع
واخذوا يعتاضون عن الخوذة بالقبعة

ولما كان القواد يوثرون ان يستخدموا محاربين من البرابرة لانهم يقاتلون في ساحة
الوغي مستميتين وكان في الامبراطورية منذ عهد طويل جنود من الجرمان في خدمة
الامبراطورية وفي آخر القرن الرابع اخذ الرومان يجندون عصابات يرمتها بجعلونهم مع
نسائهم واولادهم وخدمتهم في اراضي يعطونهم اياها ليأخذوا منها ارزاقهم وعلوفاتهم
وهؤلاء المحاربون الذين نزلوا في البلاد الرومانية كانوا يحتفظون بلسانهم وعاداتهم
واصول حروبهم وزعمائهم ولكنهم يحاربون في الجيش الروماني ويدعونهم الاجراء
او المحالفين وجاء القرن الخامس فلم يكن منهم عصابات فقط بل شعوب يرأسها مثل
الويزغوت والبورغوند فاجازوا الحدود بالقوة احياناً فبدلاً من ان يقاتلوا الامبراطور
أثروا ان يكونوا في خدمته . فنألفت اذ ذلك جيوش رومانية من شعوب بربرية
يقودها قواد منهم فقد رأينا الجيش الروماني الذي رد غارات اتيلا سنة ٤٥١

مولفًا من الـ «ويزغوت» والـ «فرنك» والـ «بورغوند» والـ «اتينوس» القائد الروماني هو في الأصل كاتبًا لنفسه

اخلاق الغارة — كان في الامبراطورية الرومانية اراض كثيرة وجند قليل واذا كان البرابرة كلهم رجال حرب ويريدون ان يملكوا اراضي اخذوا يملكون ثارة بالقوة والعناء واخرى مقابل خدمة وفي صورة محالفين ودخول البرابرة الى الامبراطورية هو الذي نسميه غارة البربر (ويطلق الالمان عليه هجرة الشعوب) وهذه الغارة لم تحدث دفعة واحدة بل وصل الجرمانيون عصابة اثر عصابة وتاريخ العصابة الاولى سنة ٣٧٦ والعصابة الاخيرة وقعت سنة ٥٦٨ فدامت الحركة اذا في الغرب زهاء قرنين وظلت من جهة الشرق خلال القرون الوسطى كلها فلم يكن بذلك حرب ولا فتح ولم يولف الجرمانيون فيلقًا بل كانوا على العكس يثيرون السكان بمضهر على بعض بحيث استحقوا اعجاب كتبة الرومان بعملهم . قال بول اوروز اننا نرى كل يوم امة من هذه الام البربرية تهبط امة اخرى ولقد شاهدنا جيشين من الغوت يقف احدهما الآخر ولكن هذه الشعوب لتقتل وتموت وتهلك . والظاهر ان الجرمانيين لم يبقوا الرومان بل كانوا يحاربون من اجلهم عن رضى دافعين غارات غيرهم من الجرمانيين ايضا ولم يكن لهم مأرب في القضاء على الامبراطورية بل كانوا يوثرون ان يكونوا في خدمتها . قال اتولف احد ملوك الغوت انه كان بطمع اولاً في ابادلة الاسم الروماني وان يؤسس من طول الاراضي الرومانية وعرضها امبراطورية بدعوها الغوتية يكون شأنه فيها شأن القيصر اغسطس واذا وقع في نفسه ان الغوت لا يعرفون النظام والترتيب ليخضعوا للقوانين عقد العزم ان يغادي بقوى الغوت لتوطيد سلطة الرومان وزيادة نفوذهم فكان بطمع ان يكون مصلح الامبراطورية اذ لم يكن في طاقته ان يؤسس مثلها مباشرة وكان البربر يدخلون الامبراطورية بدون ان يكون لهم منزع سياسي بل لمجرد انهم كانوا يرجون ان تكون حاكم فيها احسن من جرمانيا ولكن نشأت من نزولهم البلاد نتائج لم يتحسب بها احد اذ ذلك .

البربرية — كان من اقرب النتائج ان تصبح الامبراطورية الى التوحش اقرب منها الى المدنية فمضى زهاء قرن وعصابات مساحه تطوف البلاد انواع التطواف تحرق المدن وتخرّب المصانع وتقتل الحراثين او تسوقهم امامها ولقد ابقى الونداليون اخوف ذكرى حتى غدت لفظة واند اليسم تطابق للدلالة على التكالب في التخريب وكان يقول الهونس

وم شعب من فرسان التاتار ان العشب لا ينبت بثة في التربة التي وطئتها حوافر خيولهم . فقد خربت مدن كثيرة ولم تقم لها قائمة وبعضها تراجع عمرانه حتى غدا بمثابة دساكر حصينة تخربت دور التمثيل والحمامات والمدارس وجميع المصانع الرومانية شيئاً فشيئاً واتخذ السكان في كثير من المدن ابحارها لينبوا به اسواراً وهلك ارباب الصناعات النفيسة فلم يبق سوى صناعات قليلة لا يستطيعون ان يصنعوا الا مباني ليس عليها مسحة من الذوق والجمال . واضمحلت كل ما يقال له مشاهد ومدارس وادب وغدا لسكان الامبراطورية يشبهون البربر . قال احد القسيسين ممن كتبوا تاريخ ملوك الميروفنجيين والاسف آخذ منه كل مأخذ : لقد هزم العالم واتشلمت فينا حاسة النكات البديعة فامن امرىء لهدنا تحذنه نفسه ان يبلغ متهوى خطباء الزمن الماضي .

شعوب جديدة — قضى البربر في اوربا على نظام الامبراطورية الرومانية بغضات سنة ٤٧٦ وليس في رومية امبراطور وكل ملك من ملوك البربر سيد في الارض التي نزلها قومهم ^(١) فانقضت الامبراطورية الى عدة ممالك بربرية فتذات في غاليا ممالك القرنك واليورغوند وفي بريطانيا العظمى السبع الممالك من الانكل والسكسون وفي اسبانيا مملكة الوبزغوت وفي افريقية مملكة الوندال وفي ايطاليا مملكة الالوستروغوت ثم مملكة اللومباردين وكثير من الممالك انتمحت ودخلت في مملكة مجاورة ولكنه نشأت في كل مملكة امة — مفقطة على الاقل لها حكومتها وصناعاتها وآدابها .

اخلاق جديدة — انتهت ايام المدنية القديمة بدخول الجرمانين الى الامبراطورية وليس ذلك ان الجرمانيين حملوا مدينة جديدة كالرومان الى غاليا ولا انهم اتخذوا العادات القديمة كما اتخذ الفرس عادات اسيا بل انهم اتوا ولم عادات في الحياة والحكومة تخالف ما ألفه الرومان فيها انخفض من بلاد الامبراطورية .

فكان ارباب الاملاك من الرومان يعيشون في المدن عزلاً من الاسلحة خاضعين لموظفي الامبراطور اما الجرمانيون فقد غلوا يحملون اسلحتهم ونزلوا القرى وكان لكل واحد في حلقه جند من الخدمة المخلصين وكل امرىء سيد في ارضه لا يخضع بثة

(١) عاد البربر فنزلوا في جميع تخوم الامبراطورية التي هلك سكانها محافظين على اخلاقهم ولغتهم الجرمانية فاللامندبون في الباجيك والفرنك في الشامي . الايسر من نهر الرين والسواب في سويسرا والباناريون في بافيرا والنمسا ونزل بين نهر الدانوب وبلاد البلقان شعوب من عنصر سلافي مثل الخرواتييين والصربيين

للحكومة وهم محتفظون بعاداتهم الجرمانية من عدم اداء الضرائب وبذلك قضوا على نظام بيت المال وعلى الاستبداد الامبراطوري ومن هؤلاء المحاربين القرويين خرج فيما بعد الفرسان الاشراف .

وكان اسحاب الاملاك من الرومانيين يحرثون اراضيهم بواسطة جماعة من العبيد اما الجرمانيون فكانوا يعتمدون في استثمار اراضيهم على اناس من المستعمرين اي على مزارعين ينساقون حرانتها بالارث . فلم يظلوا العبودية من الامبراطورية بل تركوا العبيد يصبحون بالتدريج خدمة ثم مزارعين يملكون الارض التي يتوفرون على زراعتها .

وعليه فلم يأت البربر بعقائد ولا باختراعات جديدة بل جاؤا ويحملون عادات بلدات حطالة ارباب الاملاك والفلاحين وغيرت جميع قواعد الحكومة . فغارة البربر حدث عظيم سلب تاريخ المدنية لانه جدد المجتمع والحكومة في اوربا ولكنه كما يحدث سيف التغييرات السلبية قضت الحال بمرور عدة قرون لادراك نتائج ذلك التغيير

كيف دان الجرمانيون بالنصرانية

الارباب الجرمانيون - كان الجرمانيون كاليونان والرومان يعبدون اربابا كثيرين يمثلونها في صورة بشرية فالارباب الجرمانيون يؤلفون أسرة بأسرها وعندهم ان «وتان» والدة الجميع ورب الحروب محارب اعور يثقل رجلا يخرق الهواء ولا يرى بل يركب على حصان ابيض وكان دونار احد ابنتائه ذالعية حمراء وهو رب الرعد والعواصف يسير في مركبة ويقذف المطرقة المخرقة التي تعود الى يده من تلقاء نفسها . وكان الرب تير اوسا كنوت رب السيف والمغازي وفريرى العكس هو الرب الجميل المتسام اللطيف ينضج المزروعات وبشي الامراض وبالدير رب الحكمة والعدل والصلاح يتولى نصح سائر الارباب . وهناك ربات مثل الربة مريغا امرأة الرب وتان وهي قاسية معتومة تترأس حفلات الزواج والربة فربا وهي فتاة بارعة الجمال لطيفة الشكل يسر مرآها الارباب

وكانت هذه الاسرة السماوية تسكن قاعة عليا اسمها الوالطالا حوائطها ذهب ومقوفها فضة وبربط تلك العلية بالارض التي يسكنها البشر جسر وهو قوس قزح الذي يجتاز عليه الارباب ويجلس الرب وتان في هذه القاعة على منصة من ذهب يحف به من الارباب ذكورهم واناثهم ويذهب والكلور ومن مراسلات سماويات ونبات الحروب

والغارات مسلحات بالتروس والرماح راكبات على خيول مطهنة قاصدات الى ساحة الوغى يلتقطن من قضاوفها وهم يحاربون وبأثنين بهم الى قاعة الوالصالا حيث بالنون مكافأة عن شجاعتهم وهناك يعيشون بالقرب من الارباب في المآدب التي يأديها الربات المعروفات باسم والكور اللاتي يسقينهم شراب العسل والجمعة .

ونحو الشمال من اعماق الارض جهنم مظلمة بكثرة زهريرها اسمها نيفلهم اي ممكن الضباب وفيها ينزل رب الشر المدعو لوكي مع ولديه فتريس الذئب المفترس وهو لا ربة الموت التي يمثلونها بان نصفها اسود تأكل في صفحة الجوع ولا تترك مائنتاولة بقية . والى هذا المسكن الهائل يذهب الحاربون الاشرار الذين تساهلوا بان تجرعوا كأس الحمام بسبب مرض او شيخوخة . وغلب الرب وتأت الرب لوكي وربطه الى ثلاث صخرات ذات زوايا مع حية تقطر سمها على رأسه ولكنه يرجي له اخلاص ذات يوم وبأتي مع الجن والشياطين الشريرة على سفينة بنيت باظافر الموقى يهاجم الارباب الساكنين في الوالصالا وبذلك تسقط الشجرة الكبرى التي تمسك العالم من السقوط ويحترق قصر الوالصالا ويقلب الارباب على امرم وهذا ما يسمونه عندهم شفق الارباب ثم تعجل ارض احسن من تلك تخرج من البحر المحيط مع ارباب جدد^(١)

العبادة — لم يكن للجرمانيين اصنام ولا شادوا لهم معابد بل كانوا يعبدون اربابهم على الجبال او في الغابات بالقرب من شجرة او عين مقدسة وكان رأس كل أسرة يقيم باسمه الصلوات ويقدم القرابين ولم يكن عندهم كهنة جرمانيون في جرمانيا نفسها الاماندر حتى ابن العصابات التي دخلت منهم الى الامبراطورية الرومانية لم تصحب معها احدا منهم . ودين مبهم على هذا النحو لا يهتم احد للدفاع عنه فلم يكن من شأنه ان يقاوم طويلا ولذا كان الجرمانيون عندما داهموا الامبراطورية مستعدين لان يدينوا بالنصاوية

البرابرة الآريون — لما نزل برايرة الشمال الارض الرومانية دانوا الا قليلا

(١) ومن اسمها اخذ الالمان اسم جهنم فقالوا عنها بلقتهم هول

(٢) لم يبق للجرمانيين كتاب يذكرونهم ولكن الشعوب السكنديناوية (الدانيركيون والسويديون) كان لهم دين يشبه دين الجرمانيين عرفناه من انكتاب المسى «الادي» اي الجدة الذي كان كتب في ايسلاندا .

بالكثلكة بل بشيعة الآريوسية فقد كانت الوزيغوثيون سيفاً إسبانيا واللوستريغوثيون في إيطاليا والبورغونديين في غاليا والونداليون في إفريقيا بل واللومبارديون الذين أتوا في القرن السادس كلهم من أهل المذهب الآريوسي . والظاهر أن الجرمانيين صعب عليهم أن يقبلوا بالرمز الذي جرى التواطؤ عليه في مجمع نيقية وربما ذموا التصديق بأن الابن مساو للأب . وكانت رعاياهم الرومان أرثوذكسيين في مذهبهم وقد أدى هذا الاختلاف في الدين مدة تزيد عن قرن إلى حروب واضطهادات وكثيراً ما كان أحد ملوك البرابرة يأبى تعيين الاساقفة الأرثوذكس وقد بقي كرمي قرطاجنة ظلياً مدة أربع وعشرين سنة ولم يكتب جنريك ملك الوندال بتأييد الاساقفة بل رأى أن ينفذ على رعاياه الكاثوليك الأوامر التي كانت طبقها الإمبراطرة على الملاحدة ومع هذا كثرت الغلبة للكثلكة على المذاهب النصرانية الأخرى ودان بها بالتدريج الملوك الآريوسيون وتمذهب بها شعوبهم فانتحل البورغونديون هذا المذهب في أوائل القرن السادس وانتحل الوزيغوثيون الأسبانيون في سنة ٥٨٩ واللوومبارديون في أواسط القرن السابع أما سائر الممالك فقد خربت بها جيوش الإمبراطور يوستينيانوس .

انتحل الفرنك (الأفرنج أو الفرنك أو الفرنسيس) للنصرانية — بقي الفرنك الذين نزحوا غالياً من الشمال على وتبليتهم . وقد فضل الاساقفة الأرثوذكسيون هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يؤمنون بتبليهم بدلاً من البرابرة المسيحيين الذين ظلوا على آريوسيتهم ورعي أحد زعماء العصابات الفرنكية واسمه كلوفيس أن يتعمد على يد أسقف ريمس القديس ريمي لئلا يحذوه ثلاثة آلاف رجل ولم يلبث زعيم العصبة هذا وقد عضده رجال الكهنوت الكاثوليك أن أصبح وحده ملك غالباً كلها ومنذ ذلك العهد أصبح جميع ملوك الفرنك من نسل كلوفيس مسيحيين وعضدوا الكنيسة الأرثوذكسية وكان ذلك من جملة الأسباب في نجاحهم إمامة الفرنك فقد أبطأت في انتحالها هذا الدين فظل كثير من الحاربين زماناً طويلاً على وثنتهم ومنهم من كان من حاشية الملك . وفي أواسط القرن السادس صادفت الملكة رادغوند وهي مسيحية غيورة على الطرق العامة جنازاً وثنية فامسرت الحاربين من أهل موكلها أن يأتوا عليها فقام الفرنك بسوقهم وعصبهم . ومضى زهاء قرنين أعين من القرن السادس إلى السابع حتى غدا الفرنك كلهم مسيحيين

قاعدة القديس بنوا — أنشئت في إيطاليا وإسبانيا وغاليا منذ القرن الرابع الخويات
 قيسيين ولكن العيشة التي يعيشونها في هذه الاديار من بلاد الغرب لم تشبه
 عيشة النساك في ثيبة ^(١) وفي أواخر القرن الخامس انقطع أحد اشراف الایماليين واسمه
 بنوا (٤٨٠-٥٤٣) إلى جبل كاسين في بلاد نابولي وذلك بعد أن عاش بضع سنين
 متسككاً في غار وسط الصخور وكان ثمث معبد وغابة على اسم أبولون فتضرع بنوا فلاحي
 ذلك الجوار وأمرهم بأن يخرجوا ذلك المعبد وأقام بدلاً منه كنيسة ودير أعظمياً وغدا
 بنوا رئيس اخوية كبرى وأنشأ نظاماً طويلاً لتبسيه قاضياً عليهم أن يتفكروا عن الدنيا
 وعن الأمرة والملك وأن لا يملكوا شيئاً لانفسهم حتى ولا الصفائح (السقورات)
 والمتافئ التي يكتبون بها وأن يلبسوا كساء من الصوف الخشن أو مسوحاً ذات قبعات
 (اسكيم) كان يلبسها الفلاحون وأن يخضعوا بدون تردد لكل ما يقدر عن الرئيس
 من الاوامر قال القديس بنوا في المدخل : اسمعوا ايها الابناء أوامر الرب ولا تخافوا
 من الاثثار بأمر الرب صالح والعمل به وذلك حتى يقودكم الخضوع التام إلى ما بعدكم عنه
 العقوق والكل . وقد سمي الدير مدرسة العبودية الالهية وفي ذلك لم يأت القديس
 بنوا شيئاً سوى الجري على مثال رهبان المشرق ولكنه يختلف عنهم في كيفية استعمال
 الوقت فبدلاً من التأمل وأعمال النساك امر بالعمل قائلاً أن الكسل عدو الروح وعلى
 الجلمة فإن حياة الراهب داخلية تحت القاعدة ساعة فاعية ان يعمل كل يوم
 بيديه سبع ساعات وبقراً ساعتين وينقسم اليوم إلى سبعة فداديس يبدأ الأول منها
 في الساعة الثانية ليلاً . وإذا أراد رجل أن يدخل في هذه الطائفة بقبل فيها على
 سبيل التجربة مبتدئاً وبعد شهرين تثل على مسامحة قاعدة : « هذا هو القانون الذي
 يجب عليك أن تقاوم تحت لوائه فإن كنت في مكانة من الاختفاظ به فادخل والا
 فانت حر أن تذهب من هنا بسلام » وبعد سنة يوقع على عهد يضعه على المذبح بحضور
 جميع القيسيين ثم يركع امام كل واحد منهم على حدته ومنذ ذلك اليوم يوقن بأنه لم
 يعد يملك شيئاً حتى ولا جسمه . ولم تلبث قاعدة القديس بنوا ان أصبحت عامة على
 رهبان الغرب اتخذتها جميع الاديار القديمة وعليها أنشئت جميع الاديار الجديدة وأصبح
 بعد حين عامة رهبان الغرب من البندكتيين .

(١) بلاد ثيبة Thebaïde هي صحراء في مصر العليا بين سلسلة جبال بلاد العرب
 وسلسلة ليبيا انقطع اليها النساك الأول من أهل النصرانية ومدينة ثيبة عاصمة تلك البلاد

الرهبان البندكتيون — عاد قسم من بلاد غاليا وابطاليا في القرن السادس فاصبح خراباً يباباً وغشت الغابات العظيمة البلاد فدخل الرهبان الذين يحبون العزلة تلك الغفار وبين العومج والشوك يقيمون لهم معبداً وبعض الاكواخ ثم يأخذون باحياء موات الاراضي المجاورة وكثيراً ما يعطيهم احد الملوك او الكونتية او ارباب الاملاك بقعة واسعة (اذ كانت قيمة الارض رخيصة اذ ذاك) فيؤسسون ديراً جديداً . ولقد كان الرهبان ينشئون الاهراء وفرتنا ومطحنة ومخبزاً ويحرقون الارض ويصنعون الالبسة ويعملون حجار الطماحون والصناعات النفيسة وينسخون المخطوطات فكانت اديارهم حقولاً نموذجية كما هي معمل وخزانة كتب ومدرسة وثألف من العبيد والمزارعين في اسقاعهم قرية كبرى هكذا نشأت في فرنسا مئات من المدن حول الاديار وكثير من المدن سميت باسم القديس رئيس ديرها الاول (سان اويمر سان كلود ريميمون) وأنشئت الوف من الكنائس الخورية على يد بعض اديار البندكتيين .

تنصر الانكليز السكسونيين — يروى ان القديس غريغوريوس رأى قبل ان يصبح بابا في سوق العبيد في رومية اولاداً شقراً بيض البشرة يباعون فسأل من اين آتوا بهم فاجيب انهم آكل فقال : لقد دعوا باجل الاسماء فهم حقاً ملائكة فهل هم مسيحيون ؟ فقبل له انهم وثليون بعد . فاجاب هل من الممكن ان تحتوي هذه الجهات الجبيلة ذكاء محروماً من نعمة المولى . ومنذ ذلك الحين رأى ان ينصر الانكليز فلما غدا بابا بعث اربعين قسيساً بقودم اغسطينس الى احد ملوك بلادهم فوصل المرسلون يحملون لوحة رسم عليها المسيح تجتمع الملك مجلس العظماء وسألم فيها اذا كان يقتضي قبول الدين الجديد فوقف احد الزعماء في المجلس وقال : « ربما ذكرت ايها الملك شيئاً يحدث احياناً في نهار الشتاء عندما نكون جالساً الى المنضدة مع مقاتلتك ونارك موقدة وضرفتك دائنة والسماء تمطر ونساج والريج زعزع في الخارج وبنات كذلك بطير طائر صغير في ناز الغرفة داخلاً من باب وخارجاً من آخر وهذه اللحظة التي يقضيها الطائر وهو داخل الغرفة تحوله فلا يشعر قط بالمطر ولا يبرد الشتاء ولكن هذه اللحظة قصيرة لان الطائر لا يلبث ان يهرب ويعود الى الشتاء الذي كان فيه وعلى هذه المثال ارى حياة الناس سيفي الارض بالنسبة للوقت غير المود كد الذي يمضي في الآخرة فظاهراً ان الحياة قصيرة ولكن اي وقت يجي بعدها واي وقت مضى قبلها . هذا امر نجمله فاذا كان هذا الدين الجديد يفيدنا في ذلك اموراً آكد فهي جديرة بان نتحمل وبدان بها » وكانت النصرانية

تروق هؤلاء البرابرة الجديدين لانها تحدثهم عن اليوم الآخر . وقد نصح البابا المرسلين المسيحيين ان لا يتناقضوا المعتقدات القديمة قائلا يجب الاحتراز من تغريب معابد الاوثان بل الواجب تطهيرها وتخصيصها بعبادة الاله الحقيقي لان الامة كلما رأت اماكن عبادتها القديمة باقية تكون اكثر استعداداً الى الاختلاف اليها للالف والعادة فقد اعتاد رجال هذه الامة ان يذبحوا البقر ضحايا فالواجب ان يبدلوا هذه العبادة بزباج مسيحي دعوم ينشئون اكواخاً من ورق الشجر حول معابدهم المحولة كنائس يجتمعون فيها ويقودون اليها حيواناتهم التي يذبحونها لاعتلى سبيل ضحايا للشياطين ولكن في سبيل الله تعالى . ولم يضطهد الانكليز الكسوبيون المرسلين المسيحيين على انهم لم يتنصروا الا ببطء فهناك كان الملوك ولاسيما الملكات تحمي الديانة الجديدة كما هي الحال في غالباً ولكن المحاربين لم يهتموا لقبولها

المرسلون الايرلنديون — دانت ايرلاندا بالنصرانية منذ القرن الخامس وكانت اذ ذلك مشهورة باديارها العديدة وحمة كنائسها الدينية فكانت تلقب بجزيرة القديسين فسافر مرسلون من ادبار ايرلندا ونصروا جميع برابرة بريطانيا العظمى فالتقوا اذ ذلك بالمرسلين القادمين من رومية . وكان لكنيسة ايرلاندا وموسسوها مسيحيون من اهل آسيا بعض عادات شرقية فاحتفل بعيد الفصح مثلاً في غير الوقت الذي تحتفل به كنيسة رومية واصطلحت على وضع اكليل الاكليروس على مقدم الرأس بدلاً من الاكليل على صورة تاج . وهذه الاختلافات في الصورة دعت الى اشتداد العراك بين المرسلين الايرلنديين والمرسلين الرومانيين فيحضر البرابرة نزاعهم بحسب مآلكنائسهم من المكانة واليك ما ذكره احد الكتاب الارثوذكس من نزاع عظيم وقع سنة ٦٦٤ وتبي سنة ٦٦٤ بحضور جميع مجلس الشعب . صرح كولمان الايرلندي بان مواطنيه لا يستطيعون ان يغيروا طريقتهم في الاحتفال بعيد الفصح لان ذلك مما آلفه آباؤهم فاجابه ويلفريد السكوفي : اننا نحتفل بالفصح كما رأينا يحتفل به في رومية حيث عاش الرسولات بولس وبطرس وكذلك في غالباً وجميع الامبراطورية والبروتون فقط يعاندون في مشاكسة بقية العالم وبعد فهل في الكنة ان يفضل ابوك كولومبا على قدسية فيه على السعيد امير الحوار بين الذي قال له سيدنا يسوع : انك بطرس (ومعنى بطرس الحجر) وبك يا حجر ابني كنيسة تي وادفع اليك مفاتيح ملكوت السموات — فسأل الملك حينئذ ذلك الايرلندي قائلاً : أتحقق ان هذه الكلمات قالها سيدنا المسيح للقديس بطرس ؟

— نعم صحيح ذلك — هل في وسعك ان تبرز لي حجة تشبه حجة كولومبا؟ — لا استطيع — انتم على وفاق بان مفاتيح السموات أعطيت لبطرس — نعم — اذن هو بواب السماء ولا اريد ان اتنازع في قوله بل احب ان اخضع له في كل امر مخافة ان لا اجده احداً يفتح لي ابواب ملكوت السموات عند ماصل اليها .

وهذه الحجة كانت بحسب درجة ذكاء البريري فاستحسن المجلس الخطاب وعزم ان يتبل في المملكة بأمرها العادات الرومانية وانتهت الحال بغلبة الرومانيين (في اوائل القرن الثامن) ومنذ ذلك الحين خضعت للبابا كنيسة بريطانيا العظمى باجمعها . تنصر الجرمانيين في المانيا — كان يتألف من الجرمانيين الذين تخلفوا في المانيا عداة ام كهلوثية في القرن السادس وبدأ قسيسون ايرلانديون بتنصرهم فسكن القديس غال بين السواب بالقرب من بحيرة كونستانس في المكان الذي أنشئت فيه البيعة التي نسبت اليه . ونصر كيليان الفرنكونيين في بلاد ميين ثم استشهد وتمكن القديس ولفرن من عزم دون دي فريزون رادبود على تعميدهم وبنينا كان الفوق يدخل الى اللبوس سأل ابن بقي اجداده فقتل له انهم في جهنم فقال انا اريد اصبغ مسيحياً حتى لا انفصل عن اجدادي . واستحق وتفرغ من الانكليز السكسونيين الملقب بيونيفاس ان يلقب برسول الجرمان اذ ارسله البابا الى انكلترا كما ارسل أغسطينس يعمل هذه الرسالة : « رغبنا في ان ننتعوا معنا بالابدية فيعشنا اليكم يونيفاساً يعمدكم ويملكم ايمان الرب فاطيعوه في كل ما يأمركم ووقروه كما توفرون أباً واسمعوا لمواعظه » ثم ان يونيفاساً اوصى به شارل مارتل زعيم الفرنك زعماء الجرمانيين وبفضل هذه المعاهدة تمكن من الدخول في قلب المانيا وعقد اجتماعات وقوض الاشجار المقدسة ومنع عبادة الاصنام وبذلك تيسر له ان ينصر شطراً من الزعماء والشعب في بافيرا وتورنغ وهيس ثم سكن في ماينس ملقباً برئيس الاساقفة .

وقد بقي السكسون شعباً وثنياً في بلاد وزر (فستفاليا وهانوفر) وبعد حروب دموية اضطر شارلمان زعماءهم ان يتعمدوا ثم اسكن اساقفة وقسيسين في جميع البلاد وافضل عليهم بما يمنع عنهم الحاجة وقضى بان يقتل كل سكسوني بعد اربابه القديمة او يحمل التيام بالصيام الذي شرعته الكنيسة فمن ثم أصبحت المانيا كلها مسيحية وغدت كاتكلترا متعلقة برومية وخاصة البابا وارسلت المانيا ايضاً مرسلين ذهبوا فنصرروا الوثنيين في بلاد اسكانديناويا ومقاتلين واحوا لتبديد شمل الوثنيين من السلافيين ايضاً .

الاسلام

دين العرب الاول — انتهت تخوم المملكة الرومانية في الشرق عند رمال بلاد العرب فظل هذا الشعب مستقلاً يربياً منقسماً الى عدة قبائل وكان لسكان الساحل من العرب بعض مدن صفرى تعرف الزراعة وتبعث بقوافلها الى الغرب تحمّل اليهم البن والجوز والتمر ويطوف سكان الداخلية القفر بمواشيهم مسلحين واكبين صهوات خيولهم نصفهم رعاة والنصف الآخر قطاع طريق (كما هي عبثة البدو الى اليوم) ويقتتل العرب فنقاتل القبيلة القبيلة ولكنهم يعتبرون انفسهم باجمعهم من عنصر واحد وهم كالاسرائيليين من العنصر الذي نسميه العنصر السامي ويمتاز عن آريي الهند واوربا امتيازاً ظاهراً بلغته ودينه . ولقد كانت العرب كلها تعبد الها قادراً خالقاً هو الله تعالى ولكنها تئبد للجن خاصة وهي ارواح لا ترى وكانت لكل قبيلة اله خاص تعبد في صورة نجم او حجر او صنم^(١) ولكنهم كلهم يرجعون في عبادتهم الى الكعبة في مكة وهي البيت المتفق على تعظيمه عندهم والكعبة معبد على صورة الكعب او زهر الترد حوائطها من حجر غير نحت مغشاه باقشة من الصوف ويحفظون فيها الحجر الاسود المشهور المحترم عند العرب اجمع (وهو قطعة من حجر يركاني تحت اليوم الى اثنتي عشرة قطعة كذا) وقد وضعت كل قبيلة في الكعبة صنماً خاصاً بها ويقال انه كان فيه ٣٦٠ صنماً ومنها صنم لابراهيم وصورة العذراء مع ابنها يسوع وانشأت قريش مدينة مكة الصفري حوالي القرن الخامس في الوادي الضيق الذي تحيط به الصخور القاحلة محيطة بالكعبة ويقام فيها كل سنة سوق واعيان يتنافس فيها الشعراء وتبطل في خلال ذلك الحروب فمكة كانت هي المدينة المقدسة التي يحج اليها الناس من افطار بلاد العرب كافة .

محمد (عليه الصلاة والسلام) — ولد محمد في قبيلة قريش المقدسة وهم سادة مكة وسدنة الكعبة (بن سفي ٥٦٩ — ٥٧١) وعاش وهو اليتيم الفقير الى سن الاربعين لا شأن له . وكان رجلاً جباناً^(٢) سوداويًا لثابه عوارض من الحمى ونوبات عصبية وكان

(١) تهود كثير من العرب وكان بعضهم على دين النصارى

(٢) المترجم : قضت علينا الامانة في نقل ما كتبه المؤلف ان نعرب عبارته على علائق في الاسلام والرسول الأُمِّي العربي صلوات الله عليه هذا مع علمنا بان المؤلف مقلد فيما كتب تابع بعض اعداء الاسلام في القرون الوسطى فنطق بلسان التعصب —

— القديم وخرج بترينته عن طور المؤرخ الى طور الطاعن البهاء واناخيل القاري المصنف على مطالعة كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي فانه قد تكفل بالرد على امثال سنيو بوس ولو كان المجال مجال مناقشة لاوردنا نقولاً كثيرة عن علماء الافرنج انفسهم في سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عسى ان تكون جواباً لمن يكتب في القرن العشرين وما هو الا ابن القرن الثاني عشر او الثالث عشر بافكاره وتصوراته ونكتفي الآن بنقل جمل من كلام كارليل فيلسوف الانكليز في الرسالة المحمدية قال :

لقد اصبح من اكبر العار على كل فرد ممدن من ابناء هذا العصر ان يصغي الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب وان محمداً خداع مزور وأن لنا ان نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التي اداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً نحو مائتي مليون من الناس امثالنا خلقهم الله الذي خلقنا افكان احدكم يظن ان هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتنة المحصر والاحصاء الكذوبة وخدعة ؟ اما انا فلا استطيع ان ارى هذا الرأي ابداً ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج و يصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بهل ومجانين وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الاولى بها ان لا تخلق

هل رأيت قط معشر الاخوان ان رجلاً كاذباً يستطيع ان يوجد ديناو ينشره عجباً والله ان الرجل الكاذب لا يقدر ان يني بيتاً من الطوب وعلى وذلك فلسنا نعد محمداً قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل الى بغيته او يطمح الى درجة ملك او سلطان او غير ذلك من الحقائق والصغائر وما الرسالة التي اداها الاحقاصراحاً وما كلمته الا صوتاً صادقا صادراً من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملق ولا ما هو قطعة من الحياة قد تفتقر عنها قلب الطبيعة فاذا هي شهاب قد اضاء العالم اجمع ذلك امر الله . . .

ثم لانسى شيئاً آخر وهو انه لم يلق دروساً عن استاذ ابدأ وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذ ذاك في بلاد العرب ويظهر لي ان الحقيقة هي ان محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء واحوالها وكل ما وفق الى معرفته هو ما امكنه ان يشاهد بعينه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية وعجيب والله أمية محمد نعم انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ما تيسر له ان يبصره بنفسه او يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب ولم يبصره ولم يزر به انه لم يعرف علوم العالم —

— لا قديمها ولا حديثها لانه كان بنفسه غيباً عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نور اي انسان آخر ولم يعترف من مناهل غيره ولم يك في جميع اشباهه من الانبياء والعظماء.
— اولئك الذين اشبههم بالمصالح المادنة في ظلمات الدهور — من كان بين محمد وبينه ادنى صلة

واني لاعرف عنه انه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا انطلق فاشت من لب وفضل واخلاص وحكمة لا يقنابل غرضاً فيتركه الا وقد اثار شبهته وكشف ظلمته وابان حقيقته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام والا فلا وقد رآبناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهمة كريماً برأً روفاً نقيفاً فاضلاً حراً

وما يبطل دعوى القائلين ان محمداً لم يكن صادقاً في رسالته بل كان ملفقاً مزوراً انه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة المادنة المطفئة لم يحاول اثباتها احداث ضخمة ولا دوي مما يكون وراء ذكر وشهرة وجاه وسلطة ولم يك الا بعد الاربعين ان تحدث برسالة سماوية

اي زعم الكاذبون ان الطمع وحب الدنيا هو الذي اقام محمداً واثاره حق واهم الله وسخافة وهو س اي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالارض من تيمان وصوالج وواين تصيرا للمالك والتمان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ افي مشيخة مكة وقضيب مقضض الطرق او في ملك كسرى وتاج ذهبي الدواية منجاة لمرء ومظفرة؟ كلا اذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل ان محمداً كاذب ونعند موافقتهم عاراً وسبة وسخافة وحمقاً فلنربا بنفوسنا عنه ولنترفع

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه فسد ما خطأوا وجاروا فهم يقولون ما كان الدين ينشر لولا السيف ولكن ما هو الذي اوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق والرأي الجديد اول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم اجمع فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله بضيم واري على العموم ان الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال او لم تزوا ان النصرانية كانت لا تأنف ان تستخدم السيف احياناً وحسبكم مانع شارلمان بقبائل السكسون وانا لا احفل اكان انتشار الحق بالسيف ام بالسان ام بآية —

آية أخرى فلندع الحقائق ننشر سلطانها بالخطابة او بالصحافة او بالنار لندها تكافح—
وتجاهد بايديها وارجلها واضافرها فانها لن تهزم الا ما كانت يستحق ان يهزم وليس
في طاقتها قط ان تقني ما هو خير منها بل ما هو احط وادنى . . .

اما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو اكبر دليل على اختلاف
الاذواق في الامم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب باكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة . . .
اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان واذا خرجت من القلب نفذت
الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير ان يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه
وقد زعم براديه وامثاله ان طائفة من الاخذيع والتزويقي لفقها محمد لتكون له اعداء عموما
كان يرتكب ويترف وذا زائع لبلوغ مطامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا ان نرفض جميع
هذه الاقوال فاني لاملت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الاكاذيب وما كان ذو نظر
صادق يرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل والقرآن لو تبصرون ما هو الاجمات
ذاكيات قدفت بها نفس رجل كبير النفس بعد ان اوقدتها الافكار الطوال في الغلوات
الصامتات . . .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماء وعدوانا وشد ما نجور ونخطي^١ اذا
حسبناه رجلاً شهوياً لاهم له الا قضاء مآربه من الملاذ— كلا فما ابعد ما كان ينه
وبين الملاذ اية كانت لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر
اموره واحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما ثابعت الشهور ولم توقد بداره نار
وانهم ليدكرون ونعم ما يدكرون انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة
ومغفرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الليل قائم النهار ساهر
الليل دائباً في نشر دين الله غير طامع الى ما يطمع اليه اصاغر الرجال من رتبة اودولة
او سلطان غير مطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت رجل عظيم وربكم والا فما كان
ملاقياً من اولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً واكباراً واعظاماً . . .

وبنكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فاقول ان العيب في ذلك
على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب فان القرآن قد اقل جداً من اسناد
الحسيات والماديات الى الجنة والنار وكل ما فيه عن هذا الشأن ايماناً وتلميحاً وانما
المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى الحقوها بالجنة
ولا عذاباً بدنياً والمآجئانياً حتى اسندوه الى النار ثم اتنسوا ان القرآن جعل اكبر ملاذ—

حنفيًا أي كافرًا بعبادات العرب ويسمون بهذا الاسم من لا يعبد الاصلام بل يعبد الهًا واحدًا رب ابراهيم والد العنصر العربي . وكان رجال قبيلة محمد تنظر اليه بغير عين الرضى فسكن بين الصخور الجرداء المحرقة وفي سنة ٦١١ هـ بحسب الرواية العربية حلم محمد بأنه صاحب دين وظهرت له روح فائقة في قوتها سماها محمد بعد ذلك الملك جبرائيل قالت له : اقرأ فقال محمد : ما أنا بقاري . فقالت له اقرأ . ومنذ ذلك العهد رأى محمد نفسه بأن الله عهد اليه مباشرة بنشر الدين الحقيقي فبدأ يدعو زوجته وبناته اولًا ثم اصحابه ورجال مكة فقاومه زعماء القبيلة اجمع فاضطر الى الهجرة الى المدينة (سنة ٦٢٢)^(١) واذا كان اهل المدينة اعداء لاهل مكة اعترفوا بنبوته محمد واخلصوا له الطاعة . واحاط المديون بالرسول في ثمانين من اصحابه هاجروا من مكة يتبعونه فبدأ اذذاك يناوش قوافل مكة القتال ويغزوها مما انتهى بخضوع اهل مكة ثم حمل جميع العرب على قبول دينه .

ولم يبق محمد بمجهزات ولم يدع انه روح الهي بل كان يرى نفسه فقط رجالاً ملهمًا يتكلم ويعمل باسم الله تعالى ويظهر في مظهر رسول ومصلح قائلاً ان الدين الحق كان منذ عهد آدم وهو ان يعتقد بواحد احد وان يخضع لاوامره التي يبلغها للبشر على لسان انبيائه فنوح و ابراهيم وموسى وعيسى كانوا رسلًا . وما اليهودية والنصرانية الا اوهام مطلقة بل اشكال محرقة من دين الله الحق وهذا الدين الابدى هو الذي جاء محمد يدعو اليه يخلوه من التعريف فهو خاتم النبيين واعظمهم وباسم النبي عظمه اتباعه . وقد اخذ جانبًا من تعاليمه عن التوراة والانجيل^(٢) ولذا ساء ان يقال ان محمدًا مبتدع مسيحي والاسلام بدعة من بدع النصرانية على اصطلاح العرب .

— اللجنة روحانيًا اذ قال « وقال لم خزنيتها سلام عليكم طيبتم فادخلوها آمنين » فالسلام والامن هي في نظر كل عاقل اقصى اعاني المرء واعظم الملاذ قاطبة والشئ الذي عبتا يلتمسه الانسان في الحياة الدنيا وقال ايضا « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانًا على سرر متقابلين » واي رذيلة اخبت من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات واي شئ اهنأ من التآلف والتصافي . . .

(١) هذه السنة في الهجرة هي اول سنة في تاريخ المسلمين كما ان سنة ولادة المسيح (عليه الصلاة والسلام) هي مبدأ التاريخ المسيحي

(٢) الظاهر ان محمدًا لم يعرف شيئًا عن حياة المسيح الا من الاناجيل الزورة

القرآن — كان محمد أمياً فاذا أوحى إليه ودعا الى دينه كانت ثقل كلماته فكتبت على الحجاره وورق النخيل وعظام الجمل . والقرآن (الكتاب) هو مجموع هذه القطع ^(١) ضمت بعضها الى بعض لاعتى التعريب الذي املاه محمد بل يدي باطولها ولم تجمع الا بعد وفاة محمد على يد امين سره زيد و بعد حين دونه الخليفة عثمان تدويناً رسمياً وهذا هو الذي نراه بين ايدينا (٢) وفي القرآن مواضع وقواعد واحكام مبثورة متفرقة فهو في آن واحد كلام منزل في الدين والاخلاق والنظام والدستور .

الاسلام — يسمى الدين الذي دعا اليه محمد دين الاسلام اسمه الاستسلام لارادة الله تعالى والذين يدينون به يسمون المسلمين (اي المستسلمين) والاسلام عبارة عن هذه الكلمات : « لا اله الا الله محمد رسول الله » فالواجب اذن الاعتقاد بالله الذي خلق العالم و يدبره وهو على عرشه والملائكة حافون به يجب الخضوع لارادته التي ابلغها الناس على لسان انبيائه وقد جاء القرآن باوامره « الكتاب الذي يحوي الحقيقة » ومن يعتقد بالقرآن و يأتمر باوامره الالهية ينال الزلفى من المولى تعالى و يكافأ على عمله ومن يخلل ايمانه ولم يخضع لسلطانه فهو مذنب مع الله بعاقبه و يجاز به

وسياقي يوم « القارعة ما القارعة وما ادر بك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية واما من خفت موازينه فاهو هاوية ، وما ادر ارك ماهية ، نار حامية وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم اأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين اولئك المقربون في جنات النعيم متكئين عليها متقابلين بطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب و اباريق وكأس من معين لا يصدعون

(١) تأليف منها ١١٤ قطعة كل منها سورة

(٢) اعتاد المسلمون منذ القرن العاشر ان يغالوا ببلاغة القرآن ولكن هذا الاعجاب ببلاغته لم يكن مألوفاً للعرب في القرون الاولى و يرى احد العارفين (دوزي) ان معظم آيات القرآن قد كتبت على العكس بلغة هندية تكاد تكون الى الركاكزة (٣)

عنها ولا يتزفون وفاكة بما يتخيرون ولم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ
المكتون ٠٠٠ واصحاب الشمال واصحاب الشمال في مموم وحميم ونزل من يحوموم لبارد
ولا كريم ٠

اما العبادات فسهلة للغاية فعلى المؤمن ان يصلي خمس مرات كل يوم في اوقات
معينة وفي كل مدينة اسلامية يدعو المؤذن الى الصلاة من اعلى المسجد في الوقت
المعين وعلى المؤمن ان يتوضأ للصلاة واذا لم يكن له ماء ان يتيمم بالتراب وان يصوم
شهر رمضان لا يتناول الطعام فيه الا من الليل في الوقت الذي لا يتبين فيه الخيط الابيض
من الخيط الاسود من الفجر وان يخرج من الواكة عشر ماله (٦) على الاقل وان يحج الى مكة
ان استطاع الى الحج سبيلا ٠

وادب الدين الاسلامي هو ان لا يرتكب المرء عملاً ذنباً ولا يشرب الخمر ولا
يرابي وان يتلقى ارادة المولى راضياً لان كل امرئ لا يخرج عما كتب له في الازل
ولا سبيل له الى التخلص من المقدور فالاسلام هو دين القضاء والقدر ٠

انتشار الاسلام — دعا محمد سنة ٦١٠ الى دينه وكان العرب عامة يوم وفاته (سنة
٦٣٢) مسلمين اسلم نصفهم عن اعتقاد والتصف الآخر بالقوة وذلك مثل اهل قبيلة
التاكيفيت Takifite (كذا) نقذبعثوا يقولون لمحمد انهم يدعون بالدين الجديد اذا
رضي ان يعفيهم من الصلاة وان يترك لهم صنمهم اللات ثلاث سنين ٠ فقال محمد ان
ثلاث سنين في الوثنية يطول امرها فعرض التاكيفيون ان يمهلوا على عبادة الاصنام
سنة فقبل محمد ولما اخذ علي عهد الصلح ندم على هذا الامتنياز وقال لا اريد ان
اسم بهذه العهدة فليس عليكم الا ان تخضعوا او تقاتلكم فطلبوا ان يمهلوا على عبادة اللات
سنة اشهر فابي عليهم ثم اكتفوا بامهالهم شهراً فلم يرض ان يمهلهم ساعة فاسلم بنو تاكيفيت
ودخل الحاربون المسلمون المدينة وحطموا الاصنام

وبعد وفاة محمد اخذ العرب ينشرون الاسلام بمثل هذه الطرق ولم يشعروا بالدعوة
الشعوب الاخرى الى الاسلام رسلاً كما فعل المسيحيون بل جبوشاً فقد قال الرسول
وقائلهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فخرّب المشركين جهاد مقدس والله
مع المجاهدين ومن قتل منهم نجواؤه الجنة ٠

وقد عني الخلفاء بعد الرسول بهذا الجهاد فكانوا يبعثون الى جميع الشعوب المجاورة
رسولاً يهدون اليه ان يخبرهم بين ثلاثة امور : القرآن او الجزية او السيف ومن

يسلم يكون كمن سبقوه بالايمان ومن يخضعون فيودون الجزية يصبحون رعايا وذمة ومن يقاومون يقتلون ولم يستطع احد ان يقف في وجه هذه الجيوش المتهبة فغلب المسلمون في الشرق على سورية وفلسطين وجميع مملكة فارس وارمنية وتركستان وجزء من بلاد الهند وفي الغرب على مصر وطرابلس وافر بقية واسبانيا وخضع جميع المغلوبين على امرهم الا قليلاً ولم يبق مسيحيون الا في ولايات الامبراطورية القديمة وفي اقل من قرن (٦٣٢-٧١١) انتشر الدين الجديد من بحر الطلعات الى نهر السند وما من دين انتشر بهذه السرعة ولم تثبت مملكة الخلفاء ان انتارت على الاثر ولكن ظلت جميع البلاد التي اسلم أهلها على اسلامها

وما قط اشاع الاسلام ارضاً دخل فيها الا اسبانيا وكثيراً ما يرجع عدا راضي جديدة فان الاتراك حملوا هذا الدين الى القسطنطينية ولا يزال في عهدنا يدخل ام في هذا الدين في بلاد الهند والصين وماليزيا ولا سيما بين زنوج افريقية . والاسلام دين سهل على مستوى ذكاء الشرقيين ويبلغ عدد المسلمين اليوم نحو مائتي مليون فاذا كانت النصرانية دين أم الشمال فالاسلام دين شعوب الجنوب

المملكة البيزنطية

المملكة البيزنطية — كاد البربر الذين اغاروا على بلاد الامبراطورية الرومانية بوجوه وجبهتهم الا قليلاً قبل المغرب ولما بقي في القسطنطينية امبراطور يحكم الشرق كله . ومضى قرنان (الخامس والسادس) والامبراطورية الرومانية مختلفة بعد نصف ممالكها القديمة على الاقل وحكمها نافذ في آسيا الصغرى وسورية ومصر وفي جميع البلاد الواقعة شرقي البحر الادرياتيكي حتى لقد خضعت لها ايطاليا وافر بقية وشرط من اسبانيا بضع سنين . ثم هاجمها المهاجمون فاغتصب منها البرابرة السلافيون ابليريا وبلاد جنوبي البلقان واقتطع منها العرب جميع افريقية وسورية وجزءاً من آسيا ولم يبق لها سوى قطعتين على جانبي مدينة القسطنطينية في الغرب تراسيا (روم الي اليوم) وفي الشرق آسيا الصغرى . بيد ان العاصمة ايضاً قاومت هجمات المهاجمين من العرب وفي ذلك الحين الامين احتفظت حكومة الامبراطورية الشرقية بالقابها الغضيمة وحكومتها المطلقة وادارتها المعتادة . وظلت على هذا النحو الى ان استولى العثمانيون على القسطنطينية (١٤٥٣) وهذه الامبراطورية التي اصبحت قري بيزنطية هي التي نسميها الامبراطورية البيزنطية . بوسنيانوس — لن كان منصب الامبراطور وراثياً فانه لم يبق في الامبراطورية

الشرقية أسرة مالكة فان دسائس القصر وثورات عامة القسطنطينية لم تكذب تمكّن
الامبراطور الافي الندر من نقل سلطته الى اخلافه فكان معظم الامبراطرة مفتصبين
للملك . واشهرهم يوستينيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) وهو ابن فلاح من ولايات الدانوب
كان يرعى الغنم في طفولته دخل خاله يوستين بعد رعاية الغنم في الجندية وما زال ينتقل
من رتبة الى اخرى حتى غدا ثوراً (قائد حرس القيصر) ثم امبراطوراً . واندعى
الى القسطنطينية يوستينيانوس الذي اشتهر ببذله المال للجند وتمثيله الملاعب امام العامة
فتودي به امبراطوراً عقيب وفاة خاله .

ومن شأن يوستينيانوس ان يبحث عن كل ما يزيد في اعجابه فتوفر على الشهرة بفتح البلاد
وانشاء المعاهد والمصانع وتفتين القوانين فاراد ان يكون فاتحاً عمرانياً مشرعاً . واذا كان غير
صالح للحرب عهد الى صديقه بليزير ان يفتح البلاد باسمه وكان للامبراطورية اذ ذاك
عدوان احدهما من الشرق وهي مملكة فارس الحربية والاخر من الغرب وهي
الممالك التي اسسها البرابرة الجرمانيون في ولايات الامبراطورية القديمة وكانت ملك
الفرس صاحب حول وطول جيشه قوي ونظامه موطن الاركان وملوك البربر ضعفاء
احمل البذخ مقاتلتهم بمقتهم الشعب الكاثوليكي لانظام لم ولا ترتيب . فكان
يوستينيانوس من جهة الشرق يغلب ولم يستطع بليزير غير الدفاع عن آسيا الصغرى
وان يعقد الصلح على شرط ان يدفع الجزية (٥٣٣) وسيف آخر مدته (٥٦٢) وقع على
عهدة صالح جديدة متعهداً بان يودي كل سنة ٣٠٠٠ ذهب وقد وفق بليزير من جهة
ممالك البربر كل التوفيق فافتتح مملكة الوندالين في افريقية (٥٣٤) بمحملة واحدة
ومملكة الاوستروغوت في ايطاليا بمحارب ثمان عشرة سنة (٥٢٥ - ٥٣٣) وغلب
على جنوبي اسبانيا اخذها من صاحبها احد ملوك اليزغوت . فحق ليوستينيانوس ان
يفخر بانه وطد شطراً من الامبراطورية الرومانية القديمة ولكن استبلاءه عليها لم يكن
له من القوة ما يدفع به ما افتتحه من البلاد فلم يحجم ايطاليا من غارة اللومباردين ولا افريقية
من العرب

وتوفر يوستينيانوس وهو البناء العمراني على ان يدافع عن الامبراطورية بحصون
اقامها ويزين القسطنطينية بمصانع ومشاهد وحتى لا ينسى الاعقاب ما قام به من جلائل
الاعمال كتب يصف كل ما بناءه فكان ما بناءه على شاطئ الدانوب ٨٠ قلعة وفي ولايات
اوربا ٦٠٠ وانشأ السد الذي يحول الخليج الذي قامت عليه مدينة القسطنطينية وخطاً

من الحصون على طول الفرات . واهم هذه المصانع الكنيسة الكاتدرائية في القسطنطينية المعروفة بابا صوفيا اجمل اعمال الهندسة البيزنطية (وهي باقية الى اليوم جعلها العثمانيون جامعاً)

وقد عهد يوستنيانوس الى الفقيه تريونين ان يجمع في مجموعتين جميع الشرائع والقوانين الفقهية . فوفق يوستنيانوس بفتوحه ومصانعه وقوانينه على مايجب الى ان ينال شهرة مازالت متأفة الى اليوم ولن ينسى عهده وكانت ايام حكمه تعسة تزوج امرأة وضعية اسمها تيودورا كانت تدبر امره حسب رغبتها وهام جداً بالعباب الفروسية وبالشر حتى نسي الحكم فنار الزرق *Les Bleus* ونهبوا عاصمته خمسة ايام واوشكوا يذبحونه فاضطهد اعداءه اما اضطهاد واغلاق مدرسة الفلاسفة في أثينا واشتغل على الشعب في نقاضي الضرائب وغضب على قائده بلبيز الذي فتح باسمه كل هذه الفتوح الاعمال التشريعية — اذا كان الامبراطرة لم تبذل لم الطاعة الا في الهلاك التي كان يتحكم فيها باللغة اليونانية فقد ظلوا يكتبون عقودهم الرسمية باللاتينية وبقيت محاكم الامبراطورية تحكم بالقانون الروماني ولكن لم يبق في الامبراطورية منذ القرن الثالث فقهاء قادرون ان يكملوا الحقوق كأن يتفنتوا بازياة عليها فكانوا يكتبون بشكرار تعاليم فقهاء القرن الثاني والقرن الثالث كابوس واولين وبول وبابنين ومودستين . وقرر الامبراطرة ايضاً ان يجري عمل القضاة في المستقبل في كل المسائل التي لم يسبق للقانون ان قدر وقوعها فيتبع رأي هؤلاء الفقهاء العظام واذا كانت بينهم خلاف يجري على رأي الاكثرية وظلوا بنشرون الاوامر ويعثون الى حكام الولايات اجوبة على مسائل في الحقوق تكون بمثابة قانون ولها نفوذه واحكامه . وقد القوا سيف القرن الخامس مجموعة من هذه الاوامر الامبراطورية سموها القانون النيدوزي .

وصححت عزيمة يوستنيانوس على ان يجمع القانون الروماني برمته فعهد الى تريونين ان يقتطف من اقوال جميع فقهاء الرومان ومن اعمال الامبراطرة ما يتألف منه هذا العمل الذي نبت به لجنة من الفقهاء اشتغلت نحو عشرين سنة فألفوا ثلاثة تأليف وهي (١) مجموعة الفتاوي (بند كيت) مستخرجة من اقوال زهاء خمسمائة فقيه روماني من عصور مختلفة ونقسم الى خمسين كتاباً (٢) قانون يوستنيانوس وهو مجموع الاوامر والتقاليد الصادرة عن الامبراطرة منذ عهد قسطنطين (٣) كتاب الاحكام وهو سفر في الحقوق ألف للطلبة

ثم ان يوستينيانوس جمع في كتاب سماه السنن عامة الاوامر الصادرة في عصره وحظر ان يذكر اسم احد من فقهاء الرومان بعد ذلك وبهذا بطل استعمال الكتب القديمة في الفقه الروماني في المحاكم فضاءت الا قليلا ونحن اليوم قلما نعرف شيئاً في الحقوق الرومانية الا ما كان من قطع حفظت في مجلة يوستينيانوس ومن اجل هذا طارت شهرة هذه المصنفات

القيصرية والشعب — أصبحت المملوكة البيزنطية مع الزمن اشبه بحكومة مطلقة شرقية والامبراطور سيدها يأمر بقتل كل من ينالهم غضبه وبصادر الاموال كما يشاء نهواه ولعلاسل الدينية يتصب الاساقفة ويعزلهم ويتحكم في المعتقدات ويضطهد المخالفين ويحرف كبار القضاة والموظفون والخدم فيتألف منهم بلاط ذوابهة ويكون لكل من الداخلين فيه رتبة شرف ويقدر كل شيء برسوم دقيقة والقصر يستغرق جميع الاموال التي تجبي من البلاد ولا يذكر في الامبراطورية غير الامبراطور ونقض الحياة في القصر في معاملة دنائس النساء وبطانة الامبراطور وفي المؤامرات ١٠٩ فمن امبراطورة تعاقبوا الحكم منذ القرن الرابع الى القرن الخامس عشر ٣٤ فقط ماتوا حتف انوفهم على سرورهم ١٢ لتأزلاوا عن الملك ١٨ ماتوا في السجن ١٨ جدعت انوفهم وقطعت ايديهم ٣٠ تخفقوا وسموا وندران يخلف الامبراطور ابنه وكل انسان حتى الخادم والعسيف يتحدث نفسه بالوصول الى العرش فقد كان الامبراطور ناستازا رئيس حجاب وجوشتين رعى الخنازير وفوكاس جندياً بالعرض وكثيراً ما كان يحدث لبعض المتشردين ان لنبا له بعض المعجزات فتصح عزائمهم على تدبير المؤامرات ليصبوا امبراطورة ويروى ان باردانوس بينما كان على وشك الانقراض دله احد الكهنة على خدمته الثلاثة الذين كانوا يأتونه بفروسه قائلاً له ان هذين الاثنين يبايعان بالملك وهذا يبايع ثم يقتل وهو لاه الخدم الثلاثة كانوا ليون الخامس وميشل الثاني وتوماس الغاصب ولما كان سلاح الامبراطور في الدفاع عن نفسه الخمس والتعذب الاليم فقد قطع فوكاس (٦٠٣ — ٦٨٠) السن انصاره وفقاً عيونهم وقطع ايديهم وارجلهم وكان الامبراطور يفسرهم بالسهم او يحرقهم بانار وكثيراً ما كانت تجري هذه العقوبات الشديدة على رؤوس الاشهاد وقد شهد الامبراطور يوستينيانوس الثاني وهو مجدوع الالف مشهد الالاعاب ورجلاه على رأس متافيه في العرش ثم أمر بهما فاعدموا ووضع باسيل اعداءه المجدومين المصلومين في الساحة العامة قابضاً بيده مجرة فيها كبريت كان

يخرب بها بعضهم بعضاً ثم اضطروهم ثلاثة أيام ان يتخذوا وعيونهم مقفوءة ويد كل منهم مقطوعة .

الجيش — لم تبق في الولايات سلطة غير سلطة الجيوش فيخمدون من المتشردين من اهل كل بلد بحرايات بدرها عليهم الامبراطور وفيهم الاروام والفرس والعرب والارمن والصفالية بل والفرنجة والنورمانديون وكان معظمهم فرساناً لا يودون الضرائب ويملكون اراضي وقد دعاهم الصليبيون الفرنسيون في القرن الثالث عشر الفرسان والشرفاء وطلت طريقة الحكام المدنيين في الولايات وسط الحروب فكل قائد جيش يحكم على منطقة ولايته وبعضهم يقطعون عن كل صلة مع العاصمة فيدفعون عن انفسهم بحسب ما يترأى لهم فكانت مناطق كالابرا وصقلية مثلاً مستقلة حقيقة

الجامع — حفظت القسطنطينية خزائن كتب مملوءة بنقائس قديمة وكان فيها مدارس يخرج فيها كل من يطعمون في تولي المناصب ويقضى على المولفين في الدواة البيزنطية ان يكونوا ادباء كما هو شأن حكام الصين ويدرّس الاساتذة من الكهنة الا قليلا علوم الدين والشريعة والرياضيات والنحو وكان بعضهم ملأ بجميع علوم عصره . ولم يكن علماء بيزنطية يحاولون ان يأتوا باعمال مبتكرة بل كانوا يسقطون على التأليف القديمة فيقتبسون منها ما يجمعونه في مصنفاتهم . فقد ألف فوتيوس في القرن التاسع كتاباً سماه « عشرة آلاف مصنف » ووضع سيمون المترجم وهو قائد سياسي من اهل القرن العاشر مجموعة واسعة في حياة القديسين وجمع الامبراطور قسطنطين البورفيروجيني مجموعاً عظيماً . وكان البيزنطيون يرجون ان يضموا في بضعة مصنفات شتات عامة علوم القدماء وهو عمل متكبرين لاعمل عاين ولكن عملهم حفظ شذوراً من اسفار ضائعة قديمة

الصنائع البيزنطية — ظلت الامبراطورية البيزنطية خلال القرون الوسطى باسرها تنشي كنائس وقصوراً وتزينها فكان المنقشون بالصنائع كثيراً عددهم ولا سيما في بلاط بيزنطية وفي الادبار بين الكهنة والقسيسين . واعظم الصنائع البيزنطية الهندسة واهم مصانعها كنيسة اياصوفيا في القسطنطينية أنشئت على عهد يوستينيانوس وحافظ عليها العثمانيون تحولوها جامعاً

ونألف الكنيسة البيزنطية من قبة كبيرة وسطى فيها قباب صغرى يدخل منها النور ويحيط بالقبة الكبرى عدة قباب او نصف قباب صغرى وجميع هذه القباب مذهبية

من الخارج وتأتق أنوارها الى بعيد وفي الداخل ترى السواري من الرغام الثمين كاليلصب والسماقي وكلها ذات خطوط حمرة وخضرة وارضا مبلطة بالفسيفساء المتألقة والحوائط مزدانة بصور مرصعة بالذهب . يريدون من هذا التفنن اظهار الفنى . وغدت هذه الكنائس ذات القباب المستديرة والمذبة انموذجا للمهندسين منذ القرن السادس الى القرن الحادي عشر لاني الامبراطورة البيزنطية فقط بل عند جميع البرابرة المسيحيين في الشرق . وبقيت هذه البيعة في المشرق مثال الهندسة النصرانية وجماع الكنائس الروسية كنائس بيزنطية .

وما النقش والتصوير على ما كان قديما في مصر واشور سوى صناعات ثانوية من شأنها تزيين اعمال الهندسة وتمثل صور الجدران صفوفًا طويلة من القديسين او احفالات كهنوتية والاشخاص منفصلة عن التذهيب فيها جفاء وهي على نسق واحد وغيوبتها واسعة الاحداق واجسامها مقرنة لامعنى لها ولا حياة فيها وكذلك تماثيل القديسين ينقذ عليها ما ينقذ على صور الاشخاص وقد انقطع ارباب الصنائع عن صنع النقوش والتصوير الطبيعية واكتفوا بنقل نموذجات مقررة مبتعدين عن الحقيقة كلما كثر النقل والاحتذاء .

حفظت في المملكة البيزنطية ايضا جميع اعمال الزينة كالنقش على الخشب والعاج وصناعة الحلي والزمرد وتذهيب المخطوطات . ودام ارباب الصناعة من البيزنطيين مدة خمسة قرون من القرن السادس الى القرن الحادي عشر مستأثرين بصنع ما يحتاجه الملوك والاساقفة وروساء الاديار من البربر في غالبا وجرمانييا يعملون لهم زين البيعة ويوت السفائر والكؤوس والعروش والسيجان والمخطوطات الثمينة وكان اذا تخرج اناس في الصناعة يبلاد الغرب يبدأون باحتذاء مثال الكنائس البيزنطية

كنيسة الشرق — لم نشأ الكنائس النصرانية في الشرق ان تخضع للبابا في رومية بل كانت ترجع الى اساقفة المدن الكبرى (القسطنطينية والقدس وانطاكية والاسكندرية) يدعونهم بطاركة وفوقهم الامبراطور رئيس الكنيسة وهو ملك على الاجسام كما هو ملك على الارواح على نحو ما هو حال قيصر روسيا الى اليوم بل هو المرجع في حسم المسائل الاعتقادية

وقد اصدرز بنون سنة ٤٨٢ في الجدل الذي ثار بشأن مسألة طبعي المسيح امر آقاضيا على الفريقين ان يقبلوا بقانون عام وبعد مئة وخمسين سنة من هذا التاريخ والمسيحيون

بِثَنَاقُشُونِ فيما اذا كانت للمسيح طبيعة واحدة او طبيعتان اصدر هيراكلوس سنة ٦٣٩ امراً يقضي بان للمسيح طبيعتين ولكن له ارادة واحدة فنشأت من ذلك بدعة جديدة وانتسعت كنيسة الشرق الى عدة شيع فكان النساطرة يقولون بان سبغ المسيح طبيعتين الاولى الهية والثانية بشرية وان العذراء ليست أم الله بل أم المسيح وأسوا الكنيسة الكلدانية نصبوا زعيمها في بابل . وقال القائلون بطبيعة واحدة في المسيح ان ليس فيه من الطوائع الا الطبيعة الالهية وهو لاه أسسوا كنائس مصر وارمينية وسورية (تحت اسم اليعاقبة) والقائلون بطبيعة وحيدة في المسيح اعتقدوا بان له طبيعتين وارادة واحدة ولا يزال الموارنة في جبال لبنان يعتقدون اعتقادهم

فلم تحفظ الكنيسة الارثوذكسية في القسطنطينية بغير روم آسيا الصغرى واوروبا ولم يتيسر لها ان تظل مرتبطة بكنيسة الغرب والكنائس مختلفة في عدة مسائل فالغريغون لم يقبلوا بزواج القديس ولا بمباداة الصور وزادوا الى هذه الجملة التي قيلت في مجمع نيقية « الروح القدس منبثق من الآب » فوهم ومن الاين ايضا ولم يرض احد الفريقين ان يتنازل عن دعواه ومنذ ذهاب الامبراطور من رومية كان يعترف البابا واساقفة ايطاليا بامبراطور القسطنطينية عاهلاً عليهم ولكن لم يقبلوا بان تحكم الامبراطورية في الكنيسة وان تفض مسائل الايمان والقوانين . واصبحت الصلاة فادرة ومتعذرة بين البابا والمشاركة ثم جاء امبراطور من القائلين بتعظيم الصور فامر سنة ٧٢٨ بان لا يكون في البيع اقل تمثيل من تمثيل المسيح بل ولا العذراء ولا القديسين وان تحطم التماثيل وتعنى آثار الصور فحرض البابا جماعته المؤمنين ان يقاوموا هذا الفكر وشجب القائلين بتعظيم الصور ولما غدا احد ملوك الافرنج (شارلمان) امبراطوراً على الغرب انقطعت كل صلة بين رومية والشرقيين

ولم تبق الكنيسة الرومية محصورة في الامبراطورية البيزنطية بل بعثت رسلاً لتنصير البربر الصقالية في اوربا الشرقية كما نصر مرسلورومية بزايرة الجرمان وفي اوربا الغربية فكما غدا الجرمان في المانيا وانكثروا كاثوليكاً رومانين اصبحت السلافيون (الصقالية) في روسيا وبلغاريا كاثوليكاً روميين وما زال هؤلاء كذلك وتسمى الكنيسة الرومية (وهي تسمى نفسها الارثوذكسية) وعدد الخاضعين لها نحو ٨٠ الى ٩٠ مليوناً .

مكانة الامبراطورية البيزنطية — جرت عادة المؤرخين عند كلامهم على البيزنطيين

ان يطلقوا عليهم عبارات الاحتقار . نعم ان روايات مؤرخيهم تشعر بان هناك شعباً ظالماً نذلاً فاسداً ولكن لم يبق غيرهم باقين على شيء من مدينة بجانب الغرب الذي عاد فاصبح يبربرياً فهم الذين حفظوا الحضارة القديمة ونقلوها الى اسم اوربا الحديثة وبذلك شغلوا مكانة عالية في تاريخ العالم المتمدن واليك ما اتوه من الاعمال على سبيل الایجاز :

١ حفظوا من التشذيب القوانين الرومانية التي لا تزال في كثير من الموضوعات القاعدة التي تجري عليها الشعوب المتمدنة

٢ اتقنوا صناعات يونان القديمة وكانت تضع آثار كتاب اليونان لولا المخطوطات التي حفظها أدباء القسطنطينية وكهنتها فالبيزنطيون كانوا خزنة كتب الجنس البشري .

٣ انشأوا صورة عظمى من صور الصناعة وعلى الاقل في الهندسة ونعني بذلك الصناعة البيزنطية

٤ أسسوا كنيسة نصرانية نصرت العالم السلافي تقريباً

٥ قدمت الشعوب البربرية في اوربا الشرقية مثلاً من امثلة المدنية ولا سيما الروس فانهم طاموا اعجبوا ببيزنطية واحتذوا مثالها وما البع الروسية الا كنائس بيزنطية والقباء اللغة الروسية مؤلفة من حروف يونانية والدين الرومي هو الكشلكة الرومية حتى ان اسماء العباد يونانية (اسكندر . ميخائيل . باسيل . حنة) واخذ الشعب الرومي (وهو اليوم يناهز المئة مليون نفس) دع عنك الصربيين والبغايريين عن بيزنطية كتابته وديانته وصنائه . وعلى الجملة فقد كان البيزنطيون معلمي الصقالبة كما كان الرومان معلمي الجرمان .

مملكة العرب

الخلافة

الخلفاء — فتح المحاربون العرب في اقل من قرن (٦٣٠ — ٧١٣) بلاداً سياحتي بلغوا نهر السند وجميع افريقية الشمالية واسبانيا وخضعت البلاد التي فتحت للخليفة زعيمهم امير المؤمنين خليفة الرسول واقام الخليفة اولاً في المدينة المنورة مدينة الرسول (٦٣٠ — ٦٦٠) ثم في دمشق (٦٦٠ — ٧٥٠) ثم في بغداد على عهد العباسيين وعند ذلك تجزأت المملكة فصار الخلفاء ثلاثة في ثلاث عواصم : بغداد سيف آسيا والقاهرة

في افرقية وقرطبة في اسبانيا دع عنك الولايات المنتقضة (مثل خراسان ومراكش)
التي لم تكن تخضع لخليفة قط .

والقاعدة ان ينتخب المؤمنون الخليفة بالهام من الله . قال يزيد للناس عند مابويع
له : ايها الناس اني اعاهدكم ان لا اقيم قصراً ولا اجمع من حطام الدنيا فاذا قت بوعدي
فعليكم ان تبدلوا لي طاعتكم وتدفعوا عني بانفسكم والا فانتم في حل من بيعتي ولكن
عليكم ان تذكروني اولاً فاذا صلحت فاقبلوا معاذيري واذا عرفتكم برجل خبىتم اخلاقه
يقوم لكم بما اقوم فاختراروه وانا اخضع له . وفي الواقع فان انتخاب الخليفة كان حراً
خالصاً فاختار الامة الخلف الذي بعينه الخليفة السابق اوروساء القواد سيفه قصر
الخليفة .

الحكومة — كانت الحكومة ساذجة للغاية . متوارثة خلفاً عن سلف وعلى الخليفة
كل جمعة ان يصعد المنبر ويخطب الناس ويعظهم ثم تركت هذه العادة وكان عليه ان
يستقبل القوم جالساً على عرش يحف به ذوو قرباء واعظم دولته ولكن خليفة بغداد جعل
له وزيراً يكون خادماً ووزيراً اول يسليه بحديثه وبقفيه ويلاعبه بالزرد ويتوب عنه في
الحكم . وهو ايضا يقضي وقته في قصوره او حدائقه بين نسائه يحف به حرس من
الجند المناجر من الاجانب (ويدعونهم الخرس لانهم لا يشكلمون بالعربية)

وكان لكل ولاية قائد لجيشها يحكمها وكثيراً ما ينفذ الخليفة وفي كل حضرة
قاض يقضي بين المسلمين على اسرع وجه بدون كتابة ولا معاملة وذلك بمرأاة احكام القرآن
والعدل . ويقال عدل قاض يريدون به العدل الموجز . وكانت العرب كالرومان
يتركون الشعوب الخاضعة لم ممتعين بحقوقهم ومحاكمهم بل اساقفتهم (وكان في خلافة
بغداد وحدها ٢٥ أسقفاً مطراناً) ويتركون المسيحيين يقومون كما يشاؤون بشعائرهم
الدينية مكثفين منهم بتأدية الجزية فقط وان يحترموا المسلمين وان لا يعملوا السيف
ولا يبيعوا الخمر ولا يقرعوا نوافيسهم كثيراً ولا يثعلون اناجيلهم بصوت جهوري .

المذاهب — لما كان بين الشعوب المختلفة التي دانت بالاسلام كثير من الاختلاف
في الاخلاق لا يثاقى معه ان يقوموا بواجباتهم على مثال واحد انقسموا الى عدة مذاهب
فقدماء المؤمنين في العادة ولا سيما العرب منهم يؤمنون مع القرآن باحاديث الرسول
وما اثر عن اصحابه وآله فيعززون الكتاب بالسنة ومنه اشق اسمهم اهل السنة .
لاجرم ان هذه الاحاديث التي قبلت بسائق سرعة التعدي في المهدود في الشرقين

لا يرد عهدها الى محمد (فقد اقر احد الوضاعين الذي قتل سنة ٧٧٢ بانه وضع ٤٠٠٠ حديث) ولكنها مع ذلك من اصل عربي . اما المذهب المناقض لهذا فقد تألف بعد مقتل علي فابى اهله الاعتراف بخلفاء الأمويين في سورية ونبذوا الحديث وزعموا انهم يتسكون بالقرآن فدعا العرب يقون في الايمان هؤلاء المخالفين شيعة او رافضة وكان معظمهم قد اسلموا حديثا واكثرهم من الفرس فمزجوا الاسلام ببقايا دين زردشت القديم وادخلوا فيه حكايات واحتفالات ومعتقدات تكرهها العرب وجعل اكثرهم استنارة بكثرة تفسير القرآن فلسفة مجازية من الدين مثل صوفية الفرس حتى لقد شبهوا هؤلاء بالاباحيين وكان من امر السواد الاعظم كرها بالأمويين ان اتخذ من اخلاف علي ختن الرسول آل بيت الهى وقالوا ان الخليفة غاصب والزعم الحقيقي هو الامام من آل بيت علي وفيه السر الالهى وهكذا جاء اثنا عشر اماما عاشوا خاملين في المدينة ثم انقرض آل البيت فكانوا يتوقعون زمنا خروج الثاني عشر وهو محمد من مغارة بالقرب من بغداد حيث كان محتببا على ما يقولون ومنذ ذلك العهد اخذوا ينتظرون اماما يأتي ذات يوم لمقاومة الشر بجمونة عيسى وباني السلام على الارض وفي كل مساء يضرعون اليه ان يظهر قائلين تمثل لنا ايها الامام فان الانسانية في انتظارك لان الحق والعدل هلكوا والارض ملئت جورا وظلما . وهذا المسيح بسموه المهدي (اي الرجل الذي يسوقه الله) وقد ظهر كثير من المهديين منذ القرن العاشر ولا سيما بين مسلمي افريقية وانشأ أحدهم خلافة في القاهرة وأسس آخر دولة الموحدون في مراکش وقام لهدينامهدي جديد آخر في السودان (١٨٨٤)

المدينة العربية

نشأ المدينة العربية — كان الاسلام كالنصرانية مباحا للدخول فيه لكل انسان فاذا اسلم المغلوب يدخل في زمرة المؤمنين وكانت العرب الخلق في الصدر الاول التي تدعو انفسها السود تحقر هؤلاء الداخلين في الاسلام المدعوين بالجر السبال ولكن الخلفاء وضعوا مبدأ المساواة قال عمر من الظلم ان يحقر المرء اخاه المسلم . وقد اخذ الروم والفرس من دخلوا في الاسلام او ظلوا على دينهم وهم امعرو في المدينة يتكلمون بالعربية ومزجوا عاداتهم بعادات الوثنيين وخرج العرب متوحشين من قفارهم فتحضروا كما كان شأن الرومان قديما وراحوا يمدنون الشعوب البربر التي ما زالت على توحشها في افريقية كما مدنت رومية ببربر اسبانيا وغاليا

بغداد وقرطبة — هذه المدينة العربية التي نشأت في الشام ونارس هي شرقية

محضة فقد اقتدى خلفاء دمشق بملوك فارس فكانوا يأوون الى القصور المباطلة بالمرمر الاخضر وفي وسط الفناء حوض عظيم يفيض فيسقي حديقة غاصة بالايطار وحوله عبيد يغنون فيشرب شراباً بمااء الورد وكانت العاصمتان اللتان اسسهما الخلفاء وهما بغداد وقرطبة احسن حالة فان بغداد مدينة العجائب أنشئت في بضع سنين وكان لها اربعة ابواب من حديد تحيط بها قبة مذهبة وكان على الداخل الوصول الى القصر ان يجتاز ثلاثة ميادين وثلاثة ابواب وكان القصر مدينة مغلقة وسط المدينة . وفي ردهة الاستقبال شجرة ذهب اغصانها الاجار الثينة واسود مقيدة واحواض ومياه منجية تترطب الهواء وكان لخلفاء القاهرة حديقة اشجارها من ذهب وازهارها من الجوهر وبلاطها من الزمرد . قالوا انه كان في قرطبة في القرن العاشر مئة الف دار وستائة جامع وثمانون مدرسة وثلاثمائة حمام وثمانية وعشرون روضاً . وقد سمى الراهبة هر وسويسا الالمانية مدينة قرطبة بجوهرة العالم وكان الخليفة في قرطبة كما في بغداد يستدعي الشعراء والمغنين ويبيدهم مملوءة حقائبهم من الذهب . ولاغتيا التجار ايضا حدائق مملوءة بالزهور والاشجار العطرية والبسط الفاخرة واقشة الحرير وآنية الفضة وطيوب بلاد العرب التي يحرقونها في مجامر ذهب . وهكذا بذخ الشرقي يرغب في الثمين الفاخر اكثر من رغبته في الموافق السهل .

الزراعة — من اول واجبات الحكومة ان تفتح الترع اللازمة لزراعة الارض . وهذه كانت قاعدة امراء العرب التي جروا عليها وحفروا الآبار وجازوا من عثروا على البنائيم بالمال ووضعوا المصطلحات لتوزيع الماء بين الجيران فان مصر والشام وبابل وهي من البلاد الحارة التي تخصب واي خصب عندما يسقونها قد علمت العرب قيمة الماء وطريقة الانتفاع منه فنقلوا الى اسبانيا اسلوب النواعير التي تمتع الماء والسواقي التي توزعه . وان المورتا (؟) في ضواحي بلنسية وهو سهل مزروع كما تزرع الحديقة هو بقايا حكومة العرب وديوان المياه الذي كان يقض مسائل السقيا نظمه العرب

وقد استعملت العرب جميع انواع الزراعة التي وجدوها في مملكتهم وحملت كثيراً من النباتات الى صقلية واسبانيا وروبوها في اوربا فاحسبوا تربيتها حتى لتظنها وطنية وذلك مثل الارز والزعفران والقنب والشمش والبرنقال والكباد والنخل والهلليون والبطيخ الاصفر والعنب المطر والورد الازرق والاصفر والياسمين بل والقطن والذهب وقد دخل هذان الصنفان منذ اكتشاف اميركا

الصناعة — وجدت العرب في الشام وفارس صناعات قديمة نقلت الى جميع البلاد الاسلامية فتكملت ومنها نشأت صناعة اوربا الحديثة . وكانوا يعملون في معامل الزجاج في بغداد والشام زجاجاً معمولاً بالياقوت والصدف وتخرج من معامل الاسلحة العربية القولاذ العجمي واليطقانات المنجعة في البصرة والسيوف في اليمن ثم أخذت سورية تصنع النصال الدمشقية المشهورة واسبانيا السيوف المسقية في طليطلة . ويحويكون سيف جبال آسيا الصغرى السجاد من صوف ذي وبر . وفي دمشق قماش المنسكو واقشة القصب واقشة الحرير والصوف الدقيقة ويصنع الناش في الموصل . وقد انتقلت الرسوم العجمية التي كانت تزود بها هذه الاقشة من طيور وفيلة واسود وحيوانات ونباتات يغيّلونها (ويرد عهد بعضها الى الاشوريين) الى تزييناتنا الحديثة وكان يعمل الورق في سمرقند وبغداد منذ القرن العاشر وربما قلدوا في صنعه الصينيين ومن هاتين العاصمتين انتقلت صناعة الورق الى صقلية وكسـاتيغا (?) *Castiga* في اسبانيا . وكانت في الغرب معامل الجلود الشهيرة وهي مثل الجلد القرطبي (الكوردواني) نسبة لقرطبة (ومن هنا اشتق بالافرنجية اسم كوردونية اي صانع احذية) كما يصنع السخنيان (الماروكين) نسبة لمراكش . ويعمل في بغداد السكر الذي كان اخترع في بلاد الفرس وكانت العرب تحسن عمل المرببات والاشربة والخمور الناشفة وروح الورد

التجارة — عاش الشعوب في بلاد العرب الواسعة كما كانت الحال على عهد الرومان من اقصى المملكة الى اقضاها بسلام وراحة يتقايضون حاصلات ارضهم ومصنوعات معاملهم ويرحلون الى الهند والصين يتناعمون بمصنوعات الامم الصناعية ليجمعوها الى الشعوب البربرية في اوربا وكانت الصنائع تنقل في البجارج على مراكب وفي البر على ظهور الجمال وللعرب مرفآن تجاريان عظيمان متصلان بالعاصمتين احدهما البصرة على خليج فارس كان يفتح للعرب بجزر الهند وهناك تفرغ مراكب العرب وهي قادمة من الهند تحمل المعطور والابازير والعاج وتجيء الجنوك الصينية تحمل جميع صمغ اللك والحرير وتعود بالزجاج والسكر وماء الورد والقطن . والاسكندرية هي المرفأ الثاني فتحت على العرب طريق البحر الرومي واليه كانت تصل مراكب ايطاليا . فالبحر مرفأ بغداد والاسكندرية مرفأ القاهرة

وتسير القوافل من بغداد الى كل ناحية فمن الجنوب الغربي تقصد الى دمشق وسورية والى الشرق نحو البصرة والهند ومن الشمال الى طبريزون على البحر الاسود

حيث كانت تحمل بضائع المملكة البيزنطية والى الشمال الشرقي الى سمرقند وبحر الخزر حيث كان يذهب التجار ليأخذوا جلود روسيا وشمعها وعسلها . وكانت القوافل من القاهرة تسير الى الغرب في الطريق العظيم الذي يحاذي البحر على طولها ماراً بطرابلس والقيروان لينفذ من طنجة التي كانت تصل اليها تجارة اسبانيا ومن الجنوب طريق يصعد منها الى النيل حتى بلاد السودان وآخر يسير على الشاطئ الشرقي من افريقية حيث انشأت العرب مقدشو وكلوة وسفالة . ومن هذه الجهة كان يجيء النبر والعاج والعبيد . وكانت في جميع المدن العظمى كبغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وطنجة وقرطبة وسمرقند حي للتجارة (البازار) يعرض فيه التجار امعتهم وينفقون على الاسعار

العلوم — يقول المثل العربي من سار في طلب العلم سهل الله له طريق الجنة وكثير في الرجال من ساحوا اشهرآ في طلب حديث روي عن الرسول وبالحيقة ان المسلم يعنى عناية خاصة بعلم الكتاب وفي الهلاد الاسلامية كما في البلاد المسيحية يفضلون تعلم الفقه . فقد كان الطالب في مدارس قرطبة يقضي اربع سنين في تعلم قراءة القرآن وثماني سنين في حفظه ثم يتعلمون الكتابة وهكذا كان يخرج العلماء وهم علماء في الفقه والكلام اذ ليس القرآن قانوناً دينياً فقط بل هو قانون مدني . ومن دراسة تراكيب القرآن نشأ علم النحو وما يرح المسلمون يوثرون من العلوم الكلام والفقه والنحو وكان في الحواضر مدارس يجتمع اليها من يرغبون في التعلم او التعليم وهو لاء الاساندة المرتجلون كانوا يلقون دروسهم علناً بدون مقابل او لقاء رواتب يدفعها اليهم الحضور . وانشئت في القرن العاشر في بغداد ودمشق وسمرقند مدارس كلية حقيقية تدفع الحكومة رواتبهم

وحفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم واكملوها ونشروها^(١) وقد كتب احد علماء العرب اول كتاب في الجبر ترجم الى اللاتينية ووصف جغرافيو العرب البلاد البعيدة التي كانت القوافل تتخلف اليها .

(١) اما وقد اخذ العلماء اليوم يعرفون ما كان من علم في الامبراطورية البيزنطية فقد ادركوا بانه يجب ان يحذف كثير من الاختراعات التي نسبت للعرب كما بان ذلك مؤخراً المسيو برنولي في علم الكيمياء (كتاب اصول الكيمياء)

واستخرجت العرب من كتب الطب اليوناني الطب القبري الذي كان المعمول عليه في القرون الوسطى وهو طب العقاقير والحبوب وكانوا كاليونان يبحثون عن داء يشفي من كل الاوصاب ولكن اهم ماغلب على العرب من العلوم علم الكيمياء وكان يحببه اليهم امران مرغبان لعقل الشرقي وهما المشور على حجر الفلاسفة الذي يحول جميع المعادن الى ذهب والاكسير الذي يعطي الحياة ويعيد الشباب وكانوا يحاولون اخراجها من كل مادة واغلاشها ونقطيرها فوقع الكيمائيون في انايقهم وادوات استخراجهم ما لم يكونوا يبحثون عنه فبدلاً من الاكسير حصل معهم الاكحول (١٦٦٩) ثم بعد زمن بينا كانوا يبحثون عن حجر الفلاسفة وجدوا في المانيا الفوسفور . وظلت الكيمياء وهما ولكن نشأت منها الكيمياء الحديثة كما نشأ قديماً من بلاد الكلدان علم الفلك من علم التنجيم .

فنون العرب — لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن لم تلبث الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات ^(١) الجوامع والقصور والجامع عبارة عن قاعة كبرى يجتمع فيها المؤمنون وفي الفناء حوض ماء يتوضأون منه وماذنة تنتهي بسطح ومنه ينادي المؤذن المؤمنين للصلاة وكانت القاعة العظمى في قرطبة تنقسم الى احد عشر صفاً من السواري والقصر العربي هو بيت نزهة يكون بحسب عادة البلاد الحارة ولا يبدو منه من الخارج الا حوائط عارية . والقاعات كما في الدور القديمة متجهبة نحو فناء (صحن) داخلي مغروس بالاشجار ويرطب هواءه حوض ماء وفي صحن الاود في قصر الحمراء في غرناطة ينبس الماء من كأس عظيمة من الرخام الابيض يعملها انسا عشر اداء من الرخام الاسود والفناء يحيط به من الشواطئ سوار يشألف منها رواق والسواري العربية رقيقة عالية على مثال المتدسة الفارسية فلا تحمل الا حوائط رقيقة خفيفة من الجبس او الملاط والقناطر التي تجتمع بين السواري هي على شكل رسم

(١) تكاد تكون المعاهد العربية بأمرها مموالة من القرميد والخشب ولذلك انهدمت او هدمت . ولم يبق منها الآن الا جامع مصر والجامع الاعظم في قرطبة من القرن الثامن البرج المربع *La Giralda* في اشبيلية وجنة العرب *La Généralife* والحمراء في غرناطة من القرن الثالث عشر .

البكارين او هلال او قرن فهي هندسة خفيفة جميلة سريرة العطب كأنها اصحاف كتاب بالمقوى . وليس للعرب نقش ولا تصوير لان القرآن حرم عليهم تمثيل الاشخاص فبدلاً من التماثيل والصور تصوروا ان بصوروا الحوائط بالوان زاهية واكاليل من الزهر والورق وآيت من القرائن واشكال هندسية مشبكة وهذه الزين التي اصبحت على الدهر مختلطة مرتبكة لاصل لها الا في خيال راسمها قد حفظت اسماء مخترعها فقالوا عنها اربسك اي النقوش على هيئة النباتات والاوراق

مخطوطات في طبقات

المجموع المشتمل على الدرر

كما قبض الله سبحانه رجالاته في الهند لنشر مذهب السلف بطبع كتب الحديث وسننه ومسانيده وأجزائه وكتب عقيدتهم الصحيحة كذلك اتاح لذلك رجالاته من البحرين ومصر وجدة لا يألون جهداً في السعي وراء احياء آثار السلف وبعثها من مرافد الاعمال الذي قضى عليها ضعف العلم في العصور الاخيرة

ومنهم الشيخ عبد القادر التلمساني الاصل تزيل مصر فقد طبع في مصر الصارم المنكي ، والكافية الشافية ، وكتاب الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، وجزء رفع اليدين ، وجزء القراءة خلف الامام ، وغاية الاماني وآخر ما نشره مجموعة كتب من الطيف الكتب وانفسها بود كل منهم بالعلم ان يقف عليها ويتمتع بقوائدها

اشتمل هذا المجموع - الذي طبع في مطبعة كردستان باجل ورق والطيف حرف - على تسعة مؤلفات (الاول) كتاب الرد الوافر على من زعم ان من سعى ابن قيمية شيخ الاسلام كافر للامام حافظ الشام ناصر السنة محمد بن ابي بكر المعروف بابن ناصر الدين الشافعي المتوفى عام (٨٤٦) جاء كتابه هذا في (٣٦٦ ص) بالقطع الكامل افنتح خطبة كتابه بما ورد في اتباع السنة واجتناب البدعة ثم نعى على المكفرين والمضللين وان كل هؤلاء ، ركب هوا ، فابتدع ما احب وارفضاه ، وناظر اهل الحق عليه ، ودعاهم بجهله اليه ، وزخرف لهم القول بالباطل فتزين به وصار ذلك عندهم ديناً يكفر من خالفه ، وبلعن من باينه ، وساعده على ذلك من لاعلم له من العوام ، ووقع به الظننة